المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على قدوة البشر وصفوة المرسلين ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بالإحسان إلى يوم الدين .

وبعد ،،،

فللقرآن الكريم نظمه العجيب وتركيبه الفريد الذي يأخذ بالألباب ويسوق إليه أعناق البيان فكان من جمال التعبير القرآني تلك المراوحة الأسلوبية بين الإظهار والإخفاء ، ويكون الإظهار حيث يراد التأكيد والتقرير والاعتناء بشأن المظهر ، ويكون الإبهام حيث يراد إيقاع النفس في ظلال معاني غير متناهية من التفخيم والتهويل. فتظل تسبح في ظلاله وتتشوق إلى كماله وتذهب في التعرف على كنهه كل مذهب. وقد استثمر التعبير القرآني هذا المنحى المبهم في اللغة فرسم كثيرًا من صور الإبهام من خلال إحدى صوره وهي صيغة المبني للمفعول.

وقد تحدث البلاغيون القدامى عنه ونظروا في دلالته ومواقعه المتباينة ، وهي وإن كانت نظرات إشارية تعد بمثابة اللمحة الخاطفة لا التحليلية العميقة ، إلا أنها تدل على ذوقهم البلاغي وحسهم المرهف بمواقع الكلام وأدوات التعبير.

ومن أسرار البلاغة العربية وذوقها أن تساير الأساليب المختلفة وتتماشى مع المواقف والسياقات حسبما يتطلب المقام اللغوي والنفسي ؛ ولذا فقد أردت أن أكشف عن بعض من تفاعل الكلم القرآني وتعاطفه وانسجامه مع سياق الموقف وسياج المشهد الذي يخاطب العقل والقلب ويهز الوجدان ؛ ليلقي في قلوبنا وأسماعنا بعضًا من نفحات الإعجاز وهمسات البيان ، وذلك من خلال التعبير القرآني عن الفعل المبني للمفعول أحاول فيه الموازنة بينه وبين التعبير بنفس مادة الفعل في موضع آخر مبنيًا للمعلوم ، وذلك بالتأمل الواعي في سياق الكلام ومقتضيات الأحوال.

ومن المعلوم أن سياقات الكلام تختلف باختلاف المقام ، فتختلف الألفاظ والجمل تبعًا لذلك ، وما يصلح من لفظ في سياق لا يصلح في غيره ، ولا يؤدي نفس المعنى والدلالة.

وكذا الشأن في استدعاء النص للجملة الاسمية أو الفعلية التي تدل على الحدث وتشتمل على دلالته ، وفاعلها الذي قد يحذف من الجملة وفعلها الذي يأتي مبنيًا للمفعول ، لدواعي يقتضيها المقام: بعضها لفظي ، كالرغبة في الاختصار في مثل: (لما فاز السباق كوفئ) ، أي: كافأت الحكومة السباق ، وكالمماثلة بين حركات الحروف الأخيرة في السجع ، نحو: (من حسُن عمله عُرف فضله) ، وكالضرورة الشعرية ، وبعضها معنوي ، كالجهل بالفاعل ، وكالخوف منه أو عليه (وما يصلح لكل واحد من الثلاثة قولنا: قُتل فلان ، من غير ذكر اسم الفاعل) وكإبهامه أو تعظيمه بعدم ذكر اسمه على الألسنة صيانة له أو تحقيره بإهماله ، وكعدم الغرض بذكره ، حين يكون الغرض المهم هو الفعل ، وكشيوعه ومعرفته في مثل: جُبلت النفوس على حب من أحسن إليها ، أي: جبلها الله وخلقها. [١]

ومقامات الكلام وسياقاته هي التي تحمل دلالة تلك الأغراض السابقة التي تختلف من موضع لآخر ، فليس الغرض متعلقًا أو دالاً من حيث لفظته المفرده ولكنه يأتي من النظر في التركيب وتعلق الألفاظ ببعضها.

وهناك عدة أسباب دفعتني للكتابة في هذا الموضوع :

(١) إشارات البلاغيين الخاطفة إلى الفعل المبني للمفعول ، فأردت أن أضيف شيئًا إلى هذه الإشارات بالتحليل والموازنة.

(٢) الكشف عن أغراض أخرى وراء عدم تسمية الفاعل وبناء الفعل

١- يراجع: النحو الوافي: د/ عباس حسن ، الطبعة الثانية عشرة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٥ ، جـ/٢ ص٩٧.

للمفعول غير التي أشار إليها النحاة والبلاغيون ، فقد اشتركت نظرة النحاة والبلاغيين في تعيين أغراض عدم تسمية الفاعل ، من العلم به أو تعظيمه أو صيانته عن الابتذال والامتهان ، أو مناسبة الفواصل ، أو مناسبة ما تقدم ، أو كما ذكر السيوطي من أغراض " للاختصار أو التنبيه على أن الزمان يتقاصر على الاتيان بالمحذوف أو أن الاشتغال بذكره يفضي إلى تفويت المهم." [١]

وذلك بالنظر إلى الروح السارية أو الحياة النابضة الآخذة للب السياق ؛ لأن السياق قد يحمل أكثر من غرض لعدم تسمية الفاعل أو يبرز غرضًا أساسيًا أو جوهريًا حاملاً معه من الأغراض ما يتطلبه المعنى ويقتضيه المقام.

(٣) كثرة ورود مادة الفعل بصيغتي المبني للمعلوم والمبني للمفعول في القرآن الكريم ، فكان قمينًا بالوقوف على بعضها بالموازنة بين التعبيرين من حيث السياق والمقام ومقتضيات الأحوال.

وقد جعلت هذه الدراسة في مقدمة وفصلين وسبعة مباحث على النحو التالى:

المقدمة: تحدثت فيها عن أهمية الموضوع ودوافعه ، وخطته ومنهجه.

الفصل الأول: خصصته للبناء للمفعول في عالم الشهادة (الدنيا).

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: البناء للمفعول في مقامي العموم والشمول.

المبحث الثاني: البناء للمفعول في مقامي العلم والنداء.

المبحث الثالث: البناء للمفعول في مقامي الإنكار والإيمان.

الفصل الثاني: جعلته عن البناء للمفعول في مشاهد الغيب (الآخرة).

٢- الاتقان في علوم القرآن: السيوطي – تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار التراث، القاهرة ، ١٩٩٧ ، جـ/٣ ص١٧٠.

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: البناء للمفعول في مشهد النفخ في الصور.

المبحث الثاني: البناء للمفعول في مشهد القيامة وأهوالها.

المبحث الثالث: البناء للمفعول في مشهدي العرض والحساب.

المبحث الرابع: البناء للمفعول في مشهدي الجنة والنار.

ثم أعقبت ذلك بخاتمة أوجزت فيها أهم النتائج التي يمكن الخروج بها من هذا البحث ، وأتبعتها بقائمة لأهم المصادر والمراجع ، والله أسأل أن يرزقنا الفهم والإخلاص له ولكتابه العزيز ، وأن يبصرنا بالمعلوم والمجهول منه ، ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ من الآية: (٤) سورة الأحزاب.

الباحث

د/ سرحان حسن سرحان محمد
المدرس بقسم البلاغة والنقد
كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر
الزقازيق

الفصل الأول

البناء للمفعول في عالم الشهادة

المبحث الأول

البناء للمفعول في مقامي العموم والشمول

يتسم الأسلوب القرآني – فيما يتسم – بالمرونة والاتساق مع المشاهد واللوحات النابضة بحياة الموقف وروح المقام ، حتى إننا لنجد الكلمة بذاتها تأتي في عدة سياقات ولها دلالة مختلفة في كل سياق بحسب ما يقتضيه المعنى ويتطلبه المقام ، وكلما ازداد الزمان عمرًا ، وبلغ الدهر شأوًا وغاية انبثقت أساليب القرآن وكلماته ؛ لتشع بضوئها ونورها ؛ لتنطلق كائنات الوجود من جديد بمراميه ودلالته ، " وما أشبه القرآن الكريم في تركيب إعجازه ، وإعجاز تركيبه بصورة كلامية من نظام هذا الكون الذي اكتنفه العلماء من كل جهة ، وتحاوروه من كل ناحية ، وأخلقوا جوانبه بحثًا وتفتيشًا ، ثم هو بعد لا يزال عندهم على كل ذلك خلقًا جديدًا ، ومرامًا بعيدًا ، وصعبًا شديدًا "(١)

وبناء الفعل للمفعول قد جاء في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ليدل على دلالة معينة في كل سياق حسب اقتضاء المعنى الذي ما كان ليبرز في جلاء أو رسم واضح إذا جاء الفعل مبنيًا للمعلوم ومن تلك السياقات المفيدة للعموم والشمول ما قام فيه ذلك الفعل المبنى للمفعول بدور بارز في إفادة ذلك المعنى ، وذلك في الآيات الآتية:

١. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ .... وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا

١- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي – ط/ الرابعة – مطبعة الاستقامة بالقاهرة (١٩٤٥م) – ص١٥٧.

مَا دُعُوا .... وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾ البقرة: (٢٨٢)

٢. ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ النور: (٥١)

٣. ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ ﴾ الصف: (٧)

٤. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ الجمعة: (٩)

٥. ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ ﴾ النساء: (١٤٨)

٦. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ البقرة: (١٧٨)

٧. ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ الأنفال: (٢)

ففي الآية الأولى نهي عن التقاعس عن الدعوة وتلبيتها للإدلاء بالشهادة أيا كان الداعي إليها والحق المطلوب إثباته سواء أكان الداعي من القريب أم الصديق أم غيرهما ممن لا تربطه بالشهيد رابطة ما ، ولذا جاء الفعل (دُعُوا) مبنيًا للمفعول ، لإفادة عموم الدعوة وتحقيق الاستجابة لها ؛ لوروده بصيغة الماضي كما ورد الفعل (يُضَآرَّ) بصيغة المضارع المبني للمفعول ؛ لإفادة نفي عموم الضرر عن

الكاتب أو الشهيد وفيه إيحاء بعدم وجود العذر للتقاعس عن أداء الشهادة، حيث لا ضرر يلحق بكل من الكاتب ولا الشهيد.

وفي الآية الثانية يأتي الفعل (دُعُوا) مبنيًا للمفعول في سياق الدعوة إلى الله ورسوله ؛ ليفيد عموم الدعوة ، وأنها لا تختص بشخص دون شخص ، ولا زمان أو مكان دون غيرهما ، وإنما يجب الإذعان لله ورسوله وسرعة التلبية. وهذا هو حال المؤمنين ؛ ولذا فإن تصدير الآية بأسلوب القصر (إنما) والفعل الماضي (كان) (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ...) فيه مدح المؤمنين وإثارة لحمية الإيمان وبعث حفيظته في نفوسهم.

وفي الآية الثالثة يفصح السياق عن عظم ذنب من يفتري الكذب على الله وذلك عندما يدعى إلى الإسلام ، يقول تعالى : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ) أي : " لا أحد أظلم ممن يفتري الكذب على الله ويجعل له أندادًا وشراكاءً ، وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص." [1] ، أيًا كان الداعي وأينما كان.

وفي الآية الرابعة خصوصية المنادى عليهم وهم المؤمنون ، وعمومية المنادي أيًا كان المنادي: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) الجمعة (٩) وخصوصية النداء مقيدة بـ(الصلاة) فهو نداء محصور فيها ، والفعل (نُودِىَ) مقيد بالشرط (إذا) وهي أداة نقلت الفعل من الماضي إلى المستقبل المطلق المقطوع بحدوثه كما دلت (إذا) ، ولهذا جاء التعبير بها دون (إن) الشرطية التي لا تفيد القطع بوقوع الحدث. هذا ولورود الدعاء والنداء خاصية في القرآن الكريم ، فالدعاء في الآيات السابقة

١- تفسير القرآن العظيم : ابن كثير ، جـ٣ ، ص ٤٥١.

بمعنى الدعوة إلى خير كالإدلاء بشهادة أو الدعوة لله – عز وجل – والنداء يشتمل على البهجة والسرور كما " أن للنداء في لغة القرآن خاصية ؛ رشحته لأن يكون الله فاعلاً له بلا حرج ، كما رشحته ليكون عنوانًا على طلب الإقبال على الصلاة (الأذان) ، وأن يكون عنوانًا على طلب الإقبال على الإيمان. في كل من الدعاء والنداء ، بيد أن الخير في النداء أخلص وأصغى ، وأظهر تفاؤلاً وأنقى معنى." [١]

وفي مادة (ظلم) جاء الفعل مبني لمفعوله بصيغة الماضي ، لإفادة العموم وذلك في الآية الخامسة (لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا) النساء: (١٤٨) فإطلاق الظلم دون تحديد يعني عمومه لأنواع الظلم ، وهذا الاستثناء في الآية الكريمة له دلالة خاصة على إظهار بغض الله – تعالى – للظلم وصاحبه ، لدرجة أنه أباح الجهر بالسوء للقضاء على الظلم.

وفي مادة (عفا) ورد هذا الفعل كثيرًا في القرآن الكريم بصيغة الماضي والمضارع المجرد والمسند للضمير ، ولكنه لم يرد بصيغة المبني للمفعول إلا في موضع واحد فقط ، وهو ما ورد في الآية السادسة: (... فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ...) فليس المقصود أو الغرض ذكر فاعل العفو بل هو على إطلاقه أيًا كان ، والعفو: " القصد لتناول الشيء ، يقال عفاه واعتفاه أي: قصده متناولاً ما عنده ، وعفوت عنه: قصدت إزالة ذنبه صارفًا عنه ، فالمفعول في الحقيقة متروك وعن متعلق بمضمر ، فالعفو هو التجافي عن الذنب." [٢]

١- دراسات جديدة في إعجاز القرآن: د/ عبد العظيم المطعني، ط١، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٩٦، ص٢٦٨.

٢- المفردات في غريب القرآن: للراغب الأصفهاني ، تحقيق: وائل عبد الرحمن ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، ٢٠٠٣ ، ص ٣٤٢.

ولا يخفى ما في التعبير بقوله (أَخِيهِ) من الدعوة إلى العفو والتسامح ؛ تذكيرًا برابطة الأخوة في الدين.

ومن ذلك العموم بناء الفعلين (ذكر) و(تليت) للمفعول في الآية السابعة: (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) الأنفال: (٢) فليس الغرض متعلقًا بمن ذكر الله أو الشخص الذي تلا آيات الله بل هو على إطلاقه أيًا كان ذلك الشخص ، وإنما يتسلط الضوء على الذكر نفسه وعلى التلاوة نفسها وما تحدثه من خشية وإيمان.

ويلحظ أن الفعلين وردا ضمن جملة (إذا) الشرطية ، وفيه دلالة على تحقق الخشية والإيمان لمن ذكر الله – عز وجل – وتلا آياته ، كما نقلت (إذا) الفعلين من الماضي إلى المستقبل المطلق المقطوع بحدوثه ويلحظ – أيضًا – أن جملتي جواب (إذا) قد وردتا بصيغة الماضي المبني للمعلوم ؛ وذلك لإظهار الفاعل الذي حصلت له الخشية وهي القلوب ؛ لأنها مناط الخشية وإظهارًا لفاعل زيادة الإيمان وهي الآيات: (وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) ، (زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا) ، وذلك عن طريق المجاز العقلي ، حيث أسند الفعل (زاد) المبني للمعلوم إلى ضمير الآيات على سبيل المجاز العقلي لعلاقة السببية ، فالآيات سبب الزيادة ، وحقيقة الإسناد – والله أعلم – زاد الله المؤمنين إيمانًا بسبب الآيات ، فالزيادة فعل الله – عز وجل – على الحقيقة ، وفيه مبالغة لأهمية التلاوة في إحداث زيادة الإيمان ؛ ولذا فقد كان التعبير القرآني بلفظ (زَادَتْهُمْ) مبنيًا للمعلوم موافقًا لإفادة العموم من بناء الفعل (تُلِيَتْ) للمفعول ؛ اهتمامًا بالتلاوة على وجه العموم وما تحدثه من خشية في القلوب وزيادة في الإيمان.

المبحث الثاني

البناء للمفعول في مقامي العلم والنداء

العلم والنداء من أهم المقامات التي استخدمها القرآن الكريم مبنيًا للمعلوم كثيرًا ، في حين عُبر عنها بصيغة المبني للمفعول في عدة مواضع مفصحًا عن دلالات وأغراض ، وكاشفًا عن إعجاز وإبهار ، نقف عند بعضها متأملين مقارنين بين ورود الفعل مبنيًا للمفعول في موضع ومبنيًا للمعلوم في موضع آخر. هذا وقد اتضح لنا مجيء الفعل (علم) في القرآن الكريم معلومًا ؛ ليظهر حقيقة الفاعل في وضوح وجلاء ، ويتسلط الضوء عليه ويبرز الاهتمام به ، كقوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٧﴾ الحديد: (١٧) فالبشر (واو الجماعة) في (ٱعۡلَمُوٓاْ) هم المعنيون بالعلم ؛ ليصل بهم إلى الإيمان والتوحيد.

وقوله جل شأنه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ يوسف: (٢١)

فيظهر فاعل العلم – سبحانه وتعالى – ليتحقق جانب النبوة عند يوسف – عليه السلام – وبعثته لقومه.

وقد جاء (عُلم) مبنيًا لمفعوله لحكمة اقتضاها السياق في تقريب المعنى المخفي وحقيقته التي توارت خلف الأستار وذلك في أربعة مواضع من القرآن الكريم وهي:

١. ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ﴾ الأنعام: (٩١)

٢. ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦ ﴾ الكهف: (٦٦)

٣. ﴿ وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ١٦ ﴾ النمل: (١٦)

٤. ﴿ ... وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١ ﴾ النور: (٣١)

والملاحظ أن الآيات قد جاءت في مقام العلم الغيبي الذي هو من عند الله – تعالى – ، فالأفعال الواردة في الآية الأولى كلها مبنية للمعلوم (وَمَا قَدَرُواْ – أَنزَلَ – أَنزَلَ – تُبۡدُونَهَا – وَتُخۡفُونَ – تَجۡعَلُونَهُۥ).

وجاء الفعل (وَعُلِّمۡتُم) وحيدًا فريدًا مبنيًا لمفعوله في وسط هذا المشهد المعلوم ، ولعل ذلك يشير إلى حكمة بليغة ، وهي لفت الذهن إلى مصدر هذا العلم وهو مصدر غيبي خفي عن الأبصار وعن ماديات الحياة الدنيا المتعارف عليها ، فهو من عند الله تعالى ، " والخطاب لليهود، أي علمتم على لسان محمد – ﷺ – مما أوحي إليه ما لم تعلموا أنتم ، وأنتم حملة التوراة ، ولم تعلمه آباؤكم الأقدمون الذين كانوا أعلم منكم ، ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٧٦ ﴾ النمل: (٧٦) ، وقيل الخطاب لمن آمن من قريش." [١]

وفي مقام هذا العلم الخفي ، غير المتاح لكل أحد ، وإنما هو علم غيبي يصدر عن المولى – عز وجل – جاء فعل العلم مبنيًا لمفعوله في الموضع الثاني من قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦ ﴾ الكهف:

١- البرهان في متشابه القرآن – للكرماني – تحقيق: أحمد خلف الله – ط٢ – دار الوفاء – المنصورة – ١٩٩٨م – ص ٣١٩.

(٦٦) ، وفيه يطلب كليم الله موسى – عليه السلام – من هذا العبد الصالح أن يتبعه ليتعلم من علمه الذي علمه الله إياه ، وهذا توجيه من الله – تعالى – لموسى أن يفعل ذلك ويتبع هذا العبد الصالح ، بعد أن سُئل موسى – عليه السلام – كما أوردت كتب التفاسير ، هل في الأرض من هو أعلم منك؟ فقال لا.

ويلحظ أن (على) في قوله تعالى: (عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا) قد استعملت استعمال أدوات الشرط ، فكان معنى الكلام معها: هل أتبعك بشرط أن تعلمني ؛ فإن لم تعلمنِ لا أتبعك ، ووجه دلالة (على) هنا على الشرط قول بعض الأئمة بأن معناها العام هو الإلزام ، ومعنى الشرط الإلزام فبين المعنيين تناسب من هذه الجهة ، وهي: دلالة (على) على الشرط حقيقة أو مجاز؟ خلاف غير متكافئ والأصح أنه مجاز." [١]

والموضع الثالث في قوله ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ النمل: (١٦) لم يقل (عَلّمنا) أو (أتانا كل شيء) ، وإنما جاءت الصيغتان بالبناء للمفعول ، وحذف لفظ الفاعل للعلم به ، كما هو متبادر في مثل هذه السياقات ، فالذي علمه هذا العلم الغيبي الخفي ، وآتاه من كل شيء هو الله – تعالى – " فهذا من التمكين العظيم ، حتى إنه سخر له الإنس والجن والطير ، وكان يعرف لغة الطير والحيوان – أيضًا – ، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر – فيما علمناه – مما أخبر الله به ورسوله." [٢]

وهذه المواقف التعجيزية التي تظهر فيها الخصوصية للموقف والمشهد وصاحبه ، تستلزم سياقًا خاصًا ونسيجًا لغويًا له دلالته ، ولذلك جاءت تتمة المشهد

١- الكشاف: الزمخشري ، ط٣ ، دار الريان للتراث ، القاهرة ، ١٩٨٧ ، جـ/٢ ص ٤٤.

٢- التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم : ط١ – مكتبة وهبة – القاهرة –١٩٩٩م – جـ/٢ ص ٢٥٦.

بفعلين مبنيين للمفعول: بقوله تعالى: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ النمل: (١٦) فهذا التسخير فى (وَحُشِرَ - يُوزَعُونَ) لا ينبغي لأحد من البشر سوى نبي الله سليمان – عليه السلام – وهو تسخير يأتيه من قبل المولى – عز وجل – لا طاقة له به ، فهو قوة غيبية مصدرها المباشر من الله تعالى.

ويمثل الموضع الرابع للفعل المبني للمفعول مشهدًا غيبيًا من نوع آخر ، إنه يمثل القيمة الأخلاقية التي تمثل الصفات والطهر في النفس والمجتمع المحيط.

واللافت للنظر في الآية الكريمة أنها حملت العديد من الأفعال المبنية للمعلوم إلا هذا الموضع (ليُعلم) والشيء الخفي أو الواجب إخفاؤه هو زينة المرأة التي يجب عليها أن تخفيها إلا ما جاء به الاستثناء في الآية الكريمة لاثني عشر شخصًا.

ولعل السر في مجيء الفعل (ليُعلم) في الآية مبنيًا للمفعول هو تعلقه بالسماع ومخاطبة حاسة الأذن ، فيهتز القلب تطلعًا لهذه الزينة الصادرة عن ضرب المرأة للأرض برجلها وما تلبسه من خلخال أو ما يقوم بمهمته ودوره بتطوير الأزمان والأحوال ، يؤيد ذلك ما قاله الزجاج: "سماع هذه الزينة أشد تحريكًا للشهوة من إبدائها." [١]

ويأتي البناء للمفعول في مقام النداء – أيضًا – وذلك في الآيات الآتية:

١. ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ (طه: ١١-١٢)

٢. ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ ﴾

١- تفسير القرآن العظيم: ابن كثير – اختصار وتحقيق: أحمد شاكر وأنور الباز – الطبعة الأولى – دار الوفاء – المنصورة – ٢٠٠٣م – جـ/٢ ص ٦٥٣.

النمل: (٨)

٣. ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ القصص: (٣٠)

والمتأمل في الآيات يجد أن الفعل الذي لم يسم فاعله (نُودِيَ) قد جسّد أجزاء المشهد الذي نرى فيه كليم الله موسى – عليه السلام – يفاجأ بالنداء الذي يأتيه من حيث لا يدري ولا يحتسب فنراه وقد اعترته الدهشة وهول المفاجأة وأخذ يتلفت هنا وهناك ليقف على حقيقة الصوت ، ومن ثم فقد ناسبه بناء الفعل (نُودِيَ) للمفعول ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد جاء الفعل (بُورِكَ) في الآية الثانية مبنيًا للمفعول – أيضًا – وذلك للتناسب بينه وبين (نُودِيَ) وذلك للعلم بالفاعل ، لمناسبة معنى البركة حيث فيها خفاء وستر ، فناسبه ستر الفاعل وخفاؤه ، ولا يخفى الجرس الموسيقي الناتج من بناء الفعلين (نُودِيَ – بُورِكَ) للمفعول.

هذا وقد تغاير الفعل في الآيات الثلاث من (أتاها) إلى (جاءها) " لأن"أتى" و " جاء " بمعنى واحد ، لكن لكثرة دوران لفظ الإتيان في طه نحو: فأتياه ، " فلنأتينك " ، ثم أتى ، ثم أتو صفًا ، حيث أتى ، كان لفظ " أتاها به " أليق ، ولفظ " جاء " في (النمل) أكثر نحو: " فلما جاءتهم " ، " وجئتك من سبأ " ، فلما جاء موسى ، كان لفظ جاءها به أليق ، وألحق (القصص) بـ(طه) ؛ لقرب ما بينهما – أي: القرب اللفظي في هذا الموضع." [١]

هذا وقد جاء الفعل (نادى)مبنيًا للمعلوم في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ ﴾ الشعراء: (١٠ – ١١) وفي قوله

١– البرهان في متشابه القرآن: ص ٢٣٦.

تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾ النازعات: (١٦) ومقارنة بين المشهدين يتبين لنا أن المشهد الأول في الآيات الثلاث [طه – النمل – القصص] يخيم عليه المفاجأة وتعتريه الدهشة ومن ثم يناسبه الستر والخفاء لفاعل النداء والتركيز على الحدث حيث كان أول لقاء بين موسى وربه ، وأما المشهد الآخر فهو نداء تكليف بالرسالة وتبليغ بالدعوة لفرعون وقومه فيناسبه إظهار الفاعل وهو الله – سبحانه وتعالى – (رَبُّكَ – رَبُّهُ) لأنه مصدر التكليف والإرسال بالدعوة حتى لا يتوهم أنه أرسل إلى فرعون من تلقاء نفسه ، بل كان مؤيدًا ومرسلاً من عند الله – عز وجل – ولذا تحقق له الغلبة عليه وعلى قومه.

ومهما يكن فإننا نستنتج أن بناء الفعل للمفعول يأتي ليصور عنصر المفاجأة والدهشة ، كما في الآيات السابقة ، وكما في قوله تعالى: ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾ الأحزاب: (٦١) فاللعنة تلاحقهم في كل مكان وجدوا فيه ثم يأخذون عنوة ، ويقتلون تقتيلاً ، فالأفعال الثلاثة (ثُقِفُوٓا۟ – أُخِذُوا۟ – وَقُتِّلُوا۟) جاءت مبنية للمفعول لتمثل عنصر المفاجأة ، وليس هذا فحسب ، بل وصعدت بجو المشهد إلى ذروة الحركة وعنفها ، وهذا ما أكد عليه مجيء المفعول المطلق (تَقْتِيلًا) مؤكدًا فعل القتل ومصورًا العنف والقوة في ملاحقتهم وأخذهم وتقتيلهم.

المبحث الثالث

البناء للمفعول في مقامي الإنكار والإيمان

تختلف الكلمات المختارة وتتغير حسب مقامات الكلام وسياقاته ، فما بالنا إذا كانت تلك السياقات هي سياقات القرآن الكريم التي ترسم المشاهد بما فيها من الدلالات ، فيتلقى القارئ أو السامع آيات الله – تعالى – تتلى عليه بمعنى تألفه نفسه ، وكلمات يعرفها ويرددها في قوله ، ولكن تبقى الروح التي تسري في الجسد من أجل أن تهبه الحياة والحركة الباعثة.

فعندما حدثنا الله – عز وجل – عن المعرضين عن دينه والمنكرين لرسالاته خاطبنا بكلمات لها جرسها وإيقاعها الموافق لطبيعة النفس البشرية ، فجاء بناء الفعل للمفعول مصورًا حالة الإنكار وعدم الاعتراف التي يعيشها هؤلاء الكافرون وينغمسون بها في أتون الفساد والضلال.

وقد ورد ذلك في عدد كبير من الأفعال المبنية للمفعول نقف عند بعضها ومنها:

١. الفعل (ترك)

ورد الفعل (ترك) في القرآن الكريم كثيرًا ، ولكنه جاء مبنيًا للمعلوم في الماضي والمضارع ، مسندًا للضمير أو مجردًا ، أو باسم الفاعل للمفرد أو الجمع ولكنه ما جاء بصيغة الفعل الذي لم يسم فاعله إلا في أربعة مواضع من القرآن الكريم وهي:

١. ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ التوبة: (١٦)

٢. ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ الشعراء: (١٤٦)

٣. ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾ القيامة: (٣٦)

٤. ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ العنكبوت: (٢)

والمتأمل في الآيات بجد أنها قد جاءت في سياق الاستفهام المفيد للإنكار والتوبيخ ، والأفعال فيها جاءت بصيغة المضارع المبني للمفعول (تُتۡرَكُواْ - أَتُتۡرَكُونَ - يُتۡرَكَ - يُتۡرَكُوٓاْ).

ففي الآية الأولى (التوبة) إنكار وعتاب للمؤمنين الذين توهموا أن يتركهم الله – تعالى – دون اختبار ؛ حتى يتبين المخلص منهم ، " وهم الذين جاهدوا في سبيل الله لوجه الله ، ولم يتخذوا وليجة – أي بطانة – يضادون الرسول والمؤمنين رضوان الله عليهم ، و(لما) معناها التوقع ، وقد دلت على أن تبين ذلك ، وإيضاحه متوقع كائن." [١]

وفي آية الشعراء إنكار من نبي الله صالح – عليه السلام – لثمود وقومه الذين أعرضوا عن دعوته ، وقد غرتهم الدنيا وفتنتهم بملذاتها ومادياتها ، وفي قوله تعالى: (فِي مَا هَٰهُنَآ) " كناية عن قرية صالح – عليه السلام – والسر في إيثار اسم الإشارة (هَٰهُنَآ) لفت أنظارهم لفتًا قويًا لمظاهر النعم التي كانوا غارقين فيها ، (ءَامِنِينَ) حال من نائب الفاعل – واو الجماعة – وهو قسيم الترك في الإنكار ، إذ ليس ما سلط عليه الإنكار هو الترك وحده ، بل الترك المقرون بالأمن من كل المخاوف." [٢]

وفي آية العنكبوت إنكار على من توهم من المؤمنين أنه يترك دون امتحان واختبار لمجرد أنه نطق بالشهادة ، وفي قوله تعالى: (أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ) إيثار الماضي "

١- الكشاف: جـ/ ٢ ص ٢٥٣.

٢- التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم : د/ عبد العظيم المطعني – جـ/٣ ص ١١٢.

لأن حسبان الذي سلط عليه الإنكار واقع متحقق ، وإيثار (حسب) على (ظن) في هذه المواضع هو المناسب بلاغة في مقام الإنكار ؛ لأن الحسبان أقوى من الظن ، فالنفس مع الحسبان في اطمئنان ، ومع الظن في قلق ، وفي الناس مجاز مرسل ؛ حيث أطلق العام المنتظم لجميع أفراد الناس ، ثم أريد الخاص ، وهم الذين حسبوا هذا الحسبان من المؤمنين." [١]

وفي آية الإنسان يأتي الإنكار على من توهم أن يترك سدى أي : " لا يبعث" [٢]، والمقصود هنا إثبات المعاد ، والرد على من أنكره من أهل الزيغ والجهل والعناد." [٣]

تبين مما سبق أن الفعل (يترك) جاء بصيغة المبني للمفعول ؛ لأنه في موضع التوبيخ والإنكار فيتطلب الذوق البلاغي ألا يذكر لفظ الفاعل تشريفًا وتعظيمًا وتنزيهًا عن الذكر في مثل هذه المواقف ، ومن شأن ذلك – أيضًا – أن يسلط الضوء على المعنى ويلفت الذهن إلى الحدث – وهو الترك – وأثره على أهله.

٢. الفعل (تُتلى – يُتلى)

وإذا نظرنا إلى الفعل (تُتلى – يُتلى) الذي جاء في القرآن مبنيًا للمفعول وجدناه قد جاء في موضع الإنكار والحديث عن المعرضين والمنكرين ، وقد جاء – أيضًا – في معرض الحديث عن المؤمنين الذين أذعنوا للحق ، وأنه قد أتى في حق المنكرين والمعرضين أكثر ، ومنها الآيات الآتية:

١. ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ

١- التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم : جـ/٢ ص ١١٢.

٢- تفسير السدي الكبير – تحقيق: د/ محمد عطار – الطبعة الأولى – دار الوفاء – المنصورة – ١٩٩٣م – ص ٤٨٦.

٣- تفسير القرآن العظيم: جـ/٣ ص ٥٤١.

أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ الأنفال: (٣١)

٢. ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ﴿٧٣﴾ ﴾ مريم: (٧٣)

٣. ﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٧﴾ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٨﴾ ﴾ الجاثية: (٧ – ٨)

٤. ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾ الحج: (٣٠)

٥. ﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ الأحزاب: (٣٤)

فالفعل المبني للمفعول في الأنفال (تُتۡلَىٰ) يصور إنكارهم وإعراضهم ، وكأننا نسمع أصواتًا عالية نقول: نحن نجهل هذا الكلام ومصدره ، وقد جاءت كلمة (ءَايَٰتُنَا) مضافة إلى الضمير (نا) لتقريعهم وتبكيتهم ، وقد نزلت هذه الآية الكريمة الأنفال: (٣١) في النضر بن الحارث ، " وكان قد خرج إلى الحيرة في التجارة ، فاشترى كليلة ودمنة ، وكسرى وقيصر ، فلما قص رسول الله – ﷺ – أخبار من مضى ، قال النضر: لو شئت لقلت مثل هذا ، وكان هذا منه وقاحة وكذبًا ، وقيل: إنهم توهموا أنهم يأتون بمثله." [1]

ويلحظ أن الآية قد صدرت بـ(إذا) لأن التلاوة مقطوع بوقوعها ومثلها –

١– الجامع لأحكام القرآن: القرطبي – الطبعة الأولى – دار الفكر – بيروت – ١٩٩٩م – جـ/٤ ص ٢٨٥.

أيضًا – آية مريم قد صدرت بـ(إذا) وقد بُني فيها الفعل للمفعول وحذف الفاعل (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ) مريم: (٧٣) وذلك لعدم تعلق الغرض به ، بيد أن حذف الفاعل في الآية يوحي بمقام التوبيخ والذم والتبكيت ، " وتأويل الكلام وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين منا ومنكم أوسع عيشًا وأنعم بالاً وأفضل مسكنًا وأحسن مجلسًا وأجمع عددًا وغاشيته في المجلس نحن أم أنتم." [١]

وفي آية الجاثية حديث عن الأفاك الكذاب ، الذي لا يكتفي بالإعراض والتولي ، ولكنه يصر على الكبر والاستكبار (وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) الجاثية: (٧ – ٨) ، هذا ومن الملاحظ أن تلك الآيات ومثيلتها التي جاءت في معرض الحديث عن المعرضين جاء الفعل الذي لم يسم فاعله (تتلى – يتلى) مقرونًا بالكناية عن القرآن الكريم بكلمة الآيات المتصلة بالضمير التفخيمي الدال على عظمة الله – سبحانه – نحو (آياتنا – آياتي).

في حين لم يطرد ذلك الاتصال في معرض الحديث عن المؤمنين الموقنين مثل ما جاء في آية الحج (ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ ... إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ...) فسياق الآية الكريمة وما قبلها يتحدث عن المؤمنين وأدائهم مناسك الحج ، وهم أصحاب عقيدة راسخة وإيمان بالغيب ، فلم تكن هناك حاجة لذكر لفظ الفاعل ، فلم يعد الغرض متعلقًا به بقدر ما يتعلق بحدث التلاوة وما اشتملت عليه من تنبيهات وتعاليم خاصة بالمؤمنين ، ومنه – أيضًا – آية الأحزاب (وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي

١- جامع البيان في تفسير القرآن: الطبري– ط الثانية – دار المعرفة – بيروت – ١٩٧٢م– جـ/٨ ص٨٧.

بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا) الأحزاب: (٣٤) وربما جاء فاعل التلاوة ظاهر العيان مثبت الوجود سواء كان في معرض الحديث عن المعرضين أو المؤمنين ، وذلك حسب ما يقتضيه السياق ويتطلبه المقام ، فقد جاء – مثلاً – ظاهرًا في قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ ... ﴾ البقرة: (١٠٢) فتعين هنا بناء الفعل للمعلوم لاقتضاء المقام إظهار ذلك الفاعل (ٱلشَّيَٰطِينُ) الذين يحدثون ويتسلون على ملك سليمان ، فتظهر تلك التلاوة جلية واضحة متقررة الأثر في الأذهان.

وفي قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾ البقرة: (٢٥٢) جاء الفعل (نَتْلُوهَا) مبنيًا للمعلوم ؛ وذلك لتحقيق أمر العقيدة وإثبات الوحي من الله – تعالى – ، وتحقيق رسالة النبي محمد – ﷺ – وأنه لا ينطق عن الهوى ، فيظهر ذلك جليًا في هذه المقامات خصوصًا.

٣. الفعل أنزل (نزل)

ورد الفعل (أنزل) مبنيًا للمفعول كثيرًا في القرآن الكريم وذلك في حق المؤمنين والمنكرين ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ البقرة: (٤) فقد جاء الفعل (أُنزِلَ) مبنيًا للمفعول في سياق مدح المؤمنين بإثبات الإيمان لهم ، ومن ثم فقد أغنى عن ذكر لفظ الفاعل تعظيمًا ليقينهم (يُوقِنُونَ) ، " وفي تقديم (الآخرة) وبناء (يُوقِنُونَ) على (هُمْ) تعريض بأهل الكتاب وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته وأن قولهم ليس بصادر عن إيقان." [١]

١- الكشاف: جـ/١ ص ٤٢.

ويلحظ أن الفعل (أُنزِلَ) ورد في الآية بصيغة الماضي دون المضارع (ينزل) مثلاً على الرغم من عدم اكتمال الشريعة وقتها ؛ تغليبًا للموجود على ما لم يوجد كما يغلب المتكلم على المخاطب ، والمخاطب على الغائب ، فيقال أنا وأنت فعلنا ، كأن كله قد نزل وانتهى بنزوله ، ويدل عليه في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾ ولم يسمعوا جميع الكتاب ولا كان كله نزولاً." [١]

ويقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ المائدة: (٦٧) فالخطاب للرسول – ﷺ – بلفظ الرسالة أغنى عن ذكر لفظ الفاعل للعلم والتسليم به.

وفي حق المنكرين ورد الفعل (أنزل) مبنيًا للمفعول ، وذلك في الآيات الآتية:

١. ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ البقرة: (٩١)

٢. ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ ﴾ هود: (١٢)

٣. ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ﴾ الرعد: (٢٧)

٤. ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟

٢- الكشاف: جـ/١ ص ٤٢.

عَذَابِ ﴿٨﴾ ﴾ ص: (٨)

فبناء الفعل (أنزل) للمفعول في هذه الآيات ينبئ عن مكنون نفوسهم من نفي الوحي وإنكاره.

والملاحظ في آية البقرة أنه قد ورد بها الفعل (قِيلَ) بلفظ الماضي مبنيًا للمفعول ؛ وذلك لأنه قال ذلك مرارًا وتكرارًا وليس الغرض متعلقًا بالشخص الذي قام بدعوتهم ، وإنما تعلق الغرض بالمنزل من عند الله – تعالى – ؛ ولذا فقد ورد الفعل بعدها (أَنزَلَ) مبنيًا للمعلوم وأوثر لفظ الجلالة (ٱللَّهُ) على لفظ الربوبية ؛ لأنه مقام عقيدة وتوحيد وإثبات الوحي من السماء. ثم جاء الفعل (أُنزِلَ) مبنيًا للمفعول في سياق كلامهم (قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا) إنكارًا منهم للوحي كذبًا وافتراءً على الله.

وفي آية (هود) جاء (أنزل) بالبناء للمفعول للدلالة على ذلك – أيضًا – في حين ثبت فاعل (جَآءَ) في الآية (أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ) ؛ وذلك لإرادتهم رؤيته ومعاينته رأي العين بقصد التعجيز المفضي إلى الكذب والإنكار للوحي ، والله تعالى أعلم.

وفي آية (ص) ورد الفعل (أنزل) مبنيًا للمفعول مقدمًا عليه الاستفهام الإنكاري (أَءُنزِلَ) تشكيكًا منهم في الوحي.

هذا وقد ورد الفعل (أنزل) مبنيًا للمعلوم في آيات كثيرة من القرآن الكريم ومنها قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ الروم: (٢٤)

وقوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ ﴾ ق: (٩)

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ

إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ فصلت: (٣٩)

وقوله تعالى:﴿ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّهُۥ فِى ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾ المؤمنون:(١٨)

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ ﴾ الفرقان: (٤٨)

والملاحظ في الآيات أنها نزلت في سياق إرسال الرياح ثم إنزال الماء من السماء فجعله مصدر الحياة على الأرض التي ترتوي به فتنبت الزرع والنخل والثمار والجنات ، ولذلك ناسب بناء الفعل (أنزل) وكذلك (أرسل) للمعلوم وإظهار الفاعل ؛ لأن الماء دليل دامغ على قدرة الله – تعالى – فهو سر الوجود وبه أحيا الله الكائنات وبعث فيها الروح والحياة ، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَىۡءٍ حَيٍّۖ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ الأنبياء: (٣٠) ، ومن ثم فإنه بالمقارنة بين مجيء الفعل (أنزل) مبنيًا للمفعول ومجيئة مبنيًا للمعلوم يتبين لنا أن ما جاء في كتاب الله – تعالى – بخصوص إنزال الماء من السماء ، جاء بالفعل المبني للمعلوم سواء في سياق الأسلوب الخبري أو الإنشائي ، لتتقرر حقيقة قدرة الله ظاهرة معلومة لكل ذي قلب آخذة بعنان لبه ، واضعة يده على دلائل وجوده وقدرته.

٤. الفعل (خلف)

إذا وقفنا أمام مادة (خلف) نجد أنها جاءت بصيغة الفعل المبني للمفعول في أربعة مواضع هي:

١. ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ التوبة: (١١٨)

٢. ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١١٠﴾ ﴾ هود: (١١٠)

٣. ﴿ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفٗا ﴿٩٧﴾ ﴾ طه: (٩٧)

٤. ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿٤٥﴾ ﴾ فصلت: (٤٥)

" الاختلاف والمخالفة أن يأخذ كل واحد طريقًا غير طريق الآخر في حاله أو قوله ، والخلاف أعم من الضد ، لأن كل ضدين مختلفان وليس كل مختلفين ضدان ، ولما كان الاختلاف بين الناس في القول قد يقتضي التنازع استعير ذلك للمنازعة والمجادلة ، قال تعالى: (فاختلف الأحزاب – ولا يزالون مختلفين – اختلاف ألسنتكم وألوانكم)."[١] وهذه الصيغة المبنية للمفعول التي وردت في تلك المواضع السابقة ، نجدها قد جاءت في سياق العتاب أو الذم للمنكرين والمعرضين ، أما آية التوبة

١- المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني – تحقيق: وائل عبد الرحمن – المكتبة التوفيقية – القاهرة – ٢٠٠٣م – ص ١٦٢.

فجاءت في حق الثلاثة الذين خلفوا: كعب بن مالك – ومرارة بن ربيعة العامري – وهلال بن أمية الواقفي ، وهم جميعًا من الأنصار المؤمنين ، وقد جاءت الصيغة في حقهم (خُلِّفُواْ) دون (تخلفوا) مثلاً إشارة إلى قبح ذلك الفعل وفداحة التخلف عن رسول الله – ﷺ – ، وأن هذا العمل ما كان ليصدر من مؤمن موقن مثلهم ، وإنما يصدر من منافق أو منكر جاحد ، وبناء الفعل (خُلِّفُواْ) للمفعول فيه دليل آخر على أن هذا التخلف – هو تأخير قبول التوبة – واقع عليهم دون إرادتهم أو رغبتهم، فيه يعيش هؤلاء الصحابة – رضى الله عنهم – مجاهدة نفسية وآلامًا معنوية ، انتظارًا لتوبة الله عليهم.

وقيل: معنى (خُلِّفُواْ) فسدوا ، مأخوذ من خلوف الفم." [1] وإذا كان الفعل (خُلِّفُواْ) قد جاء مبنيًا لمفعوله ، فقد جاء في سياق الآية نفسها الفعل: (ضَاقَتْ) مبنيًا للمعلوم ومكررًا في سياق الطباق اللفظي بين (ضَاقَتْ –رَحُبَتْ) وذلك ليظهر مدى المعاناة والعنت النفسي الذي يعانونه ، حتى صارت الأرض الرحبة الواسعة أمام الأعين ضائقة بهم ، وهم ضائقون بها ، ولذلك جاءت شبه الجملة (عَلَيْهِمُ) مقدمة على الفاعل (ٱلْأَرْضُ) ، وهي نفس الصيغة التركيبة في: (وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ).

وفي آية (طه) جاء الفعل – أيضًا – مبنيًا لمفعوله ، وهذه الآية خطاب من موسى – عليه السلام – للسامري الذي فتن الناس بالعجل ، فكان وعيده بالعذاب يوم القيامة جزاء وفاقًا لما فعل حيث ضل وأضل.

أما آية (هود) وآية (فصلت) فقد جاء فيها (فَٱخْتُلِفَ) غير مسمى الفاعل ،

١– فتح القدير: الشوكاني – تحقيق دكتور: عبد الرحمن عميرة – ط الثانية – دار الوفاء – المنصورة – ١٩٩٧م – جـ/٢ ص ٥٨٤.

للدلالة – والله أعلم – على أن هذا الاختلاف ناشئ من خارج ذلك الكتاب – وهو التوراة – الذي آتاه الله موسى – عليه السلام – ، وليس خلافًا ناشئًا من داخله ، وقد وقع الاختلاف " في شأنه وتفاصيل أحكامه ، فآمن به قوم ، وكفر به آخرون وعمل بأحكامه قوم ، وترك العمل ببعضها آخرون ، فلا يضيق صدرك يا محمد – ﷺ – بما وقع من هؤلاء في القرآن." [1]

٥. الفعل (طبع)

وأما الفعل (طبع) فلم يرد بصيغة المبني للمفعول إلا في موضعين من القرآن الكريم وهما:

١. ﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ التوبة: (٨٧)

٢. ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾ المنافقون: (٣)

فالآيتان وردتا في مقام الذم وقدح الكافرين ؛ ولذا كان الأولى البناء للمفعول ، وغياب الفاعل للعلم به ، وللفت الانتباه إلى الحدث وتصويره أدق تصوير لأهميته وبيان الغرض منه وهو الطبع على قلوبهم ؛ وذلك لأنهم عرفوا الإيمان ثم رضوا بأن يكونوا على الكفر ومع الكافرين ، فكان الجزاء من جنس العمل.

والجدير بالذكر أن الإمام الزركشي قد نظر إلى بناء الفعل (وَطُبِعَ) للمفعول في آية التوبة: (٨٧) في سياقه نظرة التناسب مع ما تقدم عليها من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ التوبة: (٨٦) فصدر الآية الكريمة جاء بالبناء للمفعول

٢- فتح القدير: جـ/٢ ص ٧٣٤.

(أُنزِلَتۡ سُورَةٌ) فتناسق الختام مع البدء وجاء الفعل (وَطُبِعَ) مبنيًا للمفعول ، وهذا بخلاف قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ التوبة: (٩٣) فإنه لم يقع قبلها ما يقتضي البناء للمفعول فجاءت على الأصل." [١]

فهذا الغرض وإن كان كذلك إلا أنه ينبغي النظر إليه من ناحية السياق والمقام ؛ لأن السياق قد يحمل أكثر من غرض لعدم تسمية الفاعل ، أو يبرز غرضًا أساسيًا أو جوهريًا حاملاً معه من الأغراض ما يتطلبه المعنى ويقتضيه المقام.

وعليه فالنظر إلى الروح السارية أو الحياة النابضة الآخذة بلب السياق يبين لنا أن الآيتين قد وردتا في مقام ذم الكافرين وتصوير ما كانوا عليه من الكذب على الله ورسوله وتقاعسهم عن الجهاد ورضاهم بحياة الكافرين ، ومن ثم ناسب بناء الفعل للمفعول للاهتمام بهذا الحدث الذي هو الجزاء الأوفى بفعلهم وجرمهم.

وأما نظرة التناسب فإنها لا تسري في آية (المنافقون: ٣) حيث ورد الفعل (فَطُبِعَ) مبنيًا للمفعول ولم يسبق الآية صيغة المبني للمفعول ، قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾ المنافقون: (٢-٣) وأما بناء الفعل (وَطَبَعَ) للمعلوم في التوبة: (٩٣) " ففيه دلالة على أن إسناد الطبع إلى الله أشد تمكنًا في القلب من بنائه للمجهول. فما أسند إليه صراحة يكون أثبت وأقوى مما لم يسند إليه. وعلى هذا فهو يسند الطبع إلى الله في مواطن المبالغة والتأكيد ، ويبنيه للمجهول فيما

١- البرهان في علوم القرآن للزركشي ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الثانية ، دار التراث ، القاهرة ، جـ/٣ ص ١٤٥.

هو أقل من ذلك." [1] وذلك واضح من خلال المقارنة بين الآيتين المذكورتين في سورة التوبة وهما: قوله تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ التوبة: (٨٧) ، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾ التوبة: (٩٣) وبالنظر في السياقين يتضح ذلك. قال تعالى في سياق الآية الأولى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ التوبة: (٨٦ – ٨٧) وقال في سياق الآية الثانية: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ .... فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ التوبة: (٩٣ – ٩٦).

وهكذا يتبين لنا أن آخرين أشد ضلالاً وكفرًا من الأولين ، يدلك على ذلك ما ذكر من صفاتهم وأحوالهم ، فإنه لم يذكر في الأولين سوى أنه يستأذنون الرسول إذا أنزلت سورة تأمر بالإيمان والجهاد وأنهم يقولون: (ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ) وعقب على ذلك بقوله: (رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ). في حين ذكر من صفات الآخرين ما يدل على شدة كفرهم وضلالهم ، وغضب الله عليهم ما لم يذكره في الأولين.

- فقد طلب الله رد اعتذارهم إذا اعتذروا (قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ).
- وطلب أن يخبروهم بعدم تصديقهم وأن الله نبأهم بأخبارهم وأحوالهم

١- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: د/ فاضل صالح السامرائي ، ط. الثانية ، ٢٠٠١ ، دار عمار ، ص٨٤.

(لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ).

- وطلب من المؤمنين أن يعرضوا عنهم (فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ)

- ووصفهم بأنهم رجس (إِنَّهُمْ رِجْسٌ)

- وذكر عاقبتهم وسوء مآلهم في الآخرة (وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ)

- وطلب من المؤمنين ضمنًا ألا يرضوا عنهم إذا ما حاولوا استرضاءهم لأن الله غير راضٍ عنهم (يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ)

فناسب ذلك إسناد الطبع إلى الله للدلالة على شدة تمكن الكفر في نفوسهم وقلوبهم بخلاف الآية الأخرى. هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه مما حسّن بناء الفعل للمجهول في الآية الأولى ما قاله فيها (وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ) ببناء (أنزل) للمجهول." [1] فكما أنه لم يسند الإنزل إلى الله – تعالى – لم يسند الطبع إليه ، فكان بناء الفعل للمفعول في الآية الأولى أنسب وبناؤه للمعلوم في الآية الثانية أنسب. والله أعلم.

١- يراجع : ملاك التأويل لأبي جعفر الغرناطي ، تحقيق: د/ محمد كامل أحمد ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٤٠٥ – ١٩٨٥ ، جـ/١ ص ٤٧٠.

٦. الفعل (عمى – سكر – تقبل)

ورد الفعل (عمى) مبنيًا للمفعول في معرض المنكرين والمعرضين في موضع واحد من القرآن الكريم ، مصورًا ذلك الشيء الناشئ أو الطارئ على الحجة أو البينة التي أتاها الله نوحًا – عليه السلام – ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨ ﴾ هود: (٢٨) ، فالبينة واضحة بذاتها ، ناصعة البيان والبرهان ، وإنما قام الفعل المبني للمفعول (فَعُمِّيَتۡ) بتصوير ذلك التطور الطارئ عليها من خارجها ، وليس كما ذهب الإمام الزمخشري إلى جواز إطلاق العمى على الحجة ذاتها ، فيقال: " حجة عمياء قياسًا على حجة ظاهرة أو بصيرة ، فالفعل المبني للمفعول دل على أن التعمية واقعة عليها لا منها ، وفي (فَعُمِّيَتۡ) حينئذ استعارة تبعية حيث شبه الإخفاء بالتعمية ، بجامع عدم الرؤية في كل ، هذا هو اللائق بمعجزات الله أو رسالته إذا كان المراد من البينة هي النبوة أو الوحي أو المعجزة ولو سلمنا بأن المعجزة تكون عمياء إذا لم تهد إلى الحق ، لما سلم كتاب سماوي ولا نبوة ولا معجزة من هذه الوصمة." [١] ، ويقال: عميت عن كذا ، عمي علي كذا: إذا لم أفهمه ، قيل: وهو من باب القلب ، لأن البينة أو الرحمة لا تعمي ، وإنما يعمى عنها، فهو كقولهم: أدخلت القلنسوة رأسي." [٢]

ويلحظ مجيء الأسلوب الإنشائي في قوله: (أَنُلۡزِمُكُمُوهَا) وهو استفهام إنكاري تكذيبي في أن يلزمهم الإيمان بالبينة وهم لها كارهون. وهكذا فإنه يؤكد ما أفاده الفعل المبني للمفعول (فَعُمِّيَتۡ) وأن التعمية واقعة منهم عليها لكونهم كارهين لها.

١- التفسير البلاغي للإستفهام في القرآن الكريم: د/ عبد العظيم المطعني ، جـ/٢ ص ١٠٢.

٢- فتح القدير: للشوكاني ، جـ/٢ ص ٦٨٩.

كما جاء الفعل (سكر) مبنيًا للمفعول – أيضًا – في مقام الحديث عن المنكرين والمعرضين الذين يزعمون أنهم مسحورون ، يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ الحجر: (١٤ – ١٥) فقد صور الفعل (سُكِّرَتْ) حالهم من المبالغة في الإنكار والإعراض عن الله عز وجل حيث بينت الآية أنه لو حدث أن فُتح عليهم باب من السماء فظلوا يعرجون فيه لما آمنوا وإنما يزعمون أنهم سُحروا فخرجت أبصارهم عن إرادتهم فأغلقت رغمًا عنهم ؛ إمعانًا منهم في إنكار المعجزة – ولو حدثت – ، وإشارة منهم إلى إعراضهم الشديد عن دعوة الحق – سبحانه – ، وهذا الفعل (سُكِّرَتْ) بهذه الصيغة جاء منفردًا وحيدًا في القرآن الكريم كله.

وكذا ورد الفعل (تقبل – يتقبل) مبنيًا للمفعول في مقام الحديث عن الإيمان والكفر لابني آدم – عليه السلام – (قابيل وهابيل) وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ المائدة: (٢٧) فقد صور الفعل المبني للمفعول ما كانت عليه نفس هابيل وقابيل من التقوى والإيمان والكفر والحسد فمجيء (فَتُقُبِّلَ) بعدم تسمية الفاعل إشارة لتعليق قبول العمل على ما انطوى عليه القلب من إخلاص وتقوى وإيمان ، فتقبل الله من أحدهما (هابيل) لإيمانه وتقواه ، ولم يتقبل من الآخر (قابيل) لكفره وحسده ، وهذا وذاك محله القلب.

وعليه فإن الفعل المبني للمفعول يتطلب سياقًا ذا دلالة خاصة تنبئ عن مكنون المشهد وخفاياه المطوية ، فقد يأتي ليصور مجهول النفس وما طُوي أو أُضمر فيها.

الفصل الثاني

البناء للمفعول فى مشاهد الغيب

المبحث الأول

البناء للمفعول في مشهد النفخ في الصور

يقوم الفعل المبني للمفعول بتصوير أحداث المشهد الغيبي الذي غابت دقائقه عن المتلقي أو خفي عن ذهنه وخياله ، ومن هذه المشاهد الغيبية : مشهد النفخ في الصور ، فالأساليب القرآنية تعمل في المشاهد الغيبية عملاً حيًا يساعد نفس المتلقي على تلقي كينونة المشهد بمعناه العميق ؛ ليتدارك خياله ما قصرت عنه حواسه المادية ، فتتغاير الأفعال والجمل بتغاير الأحداث والوقائع والأشخاص ، فنجد فعلاً بعينه يدور في المواضع الكثيرة مبنيًا للمعلوم ليقرر الحقيقة دامغة واقعة شاخصة للعيان ، لا جدال فيها ولا مراء ، فيأتي الفعل الذي لم يسم فاعله ؛ ليؤدي دورًا بليغًا في سياق المشهد الغيبي وذلك كالفعل (نفخ) مثلاً الذي جاء مبنيًا للمفعول في اثني عشر موضعًا من القرآن الكريم ومنها:

١. ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ طه: (١٠٢ – ١٠٣)

٢. ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ المؤمنون: (١٠١)

٣. ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ الزمر: (٦٨)

٤. ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾ النبأ: (١٨)

فهذه أربعة مواضع من مجموع اثني عشر موضعًا للفعل (نُفِخَ –يُنفَخُ) هي كل

ما جاء في القرآن الكريم في مشاهد الغيب في الآخرة ، وقد غاب لفظ الفاعل لعدم تعلق الغرض به ، ففي آية (طه) يتعلق الغرض بعلاقة الحدث (يُنفَخُ) ووقعه وأثره في الصور بوقع الأهوال ، ولا مجال لظهور الفاعل في المشهد حتى لا يشغل حيزًا أو مساحة يحتاجها المشهد بجزئياته وخطوطه ، وجاء (يَوْمَ) نكرة للتهويل ، وهو " منصوب بإضمار اذكر ، ويجوز أن يكون ظرف والمضمر حذف للإيذان بضيق العبارة عن حصره وبيانه ، أو بدلاً من (يوم القيامة) أو بيانًا له أو ظرفًا لـ(يَتَخَافَتُونَ) وقرأ أبو عمرو وابن محيصل (ننفخ) بنون العظمة على إسناد الفعل إلى الآمر به وهو الله – سبحانه وتعالى – تعظيمًا للنفخ لأن ما يصدر من العظيم عظيم." [1]

وفي آية (الزمر) غاب لفظ الفاعل – أيضًا – لعدم تعلق الغرض به ، وجاء الفعل (نُفِخَ) مبنيًا للمفعول لينصب الاهتمام على إبراز الحدث بهوله وشدة صوته التي لا تكاد تسمعها الآذان، ومن الثابت علميًا أن الصوت إذا علا وارتفع كان سببًا في إصابة الإنسان بالتوتر العصبي وسرعة الغضب والانفعال ، فإذا زاد عن حده إلى درجة لم يعد يتحملها الإنسان أصيب بالصمم، فإذا ظل في الارتفاع خرَّ ميتًا ! فالسمع له حدود " فلا تدرك الأذن من الأصوات إلا ما كانت ذبذباته في المدى المسمى بالموجات الصوتية ، بينما لا تشعر بموجات اللاسلكي ولا الموجات فوق الصوتية ، وحساسية الأذن – أيضًا – محدودة لشدة الصوت ، فلا تميز الأصوات لو قلت شدتها عن ١٠ ، ١٢٠ وات/م^{٢} (بداية مقياس الديسيبل) ، ولا تتحمل الأصوات التي تزيد شدتها عن ٢٠٠ ديسيبل ، ولو زادت لصعق الإنسان ومات

١- التصوير الجمالي في القرآن الكريم: د/ عيد يونس، ط١ ، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ١٢٩ - ١٣٠.

على الفور." [1]

ومن إعجاز القرآن الكريم إثبات تلك الحقيقة قرآنًا يتلى منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا ، بل تنقلب تلك الصاعقة المميتة إلى ضدها ، فتتحول تلك النفخة التي أفنت الخلائق ، إلى نفخة بعث وحياة !. قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ الزمر: (٦٨) ، فقد أفادت (ثُمَّ) في الآية معنى التراخي الزمني بين النفختين ، وقوله تعالى: (أُخْرَىٰ) دل على أن النفخ في الصور نفختان ، ويحدث التحول السريع المفاجئ عقب إرسال النفخ إلى الموتى ، إلى القيام والنظر كما دلت (فَإِذَا) الفجائية.

أما مشاهدة المادة أو الواقع الملموس أو المحسوس ، فإن الفعل (نفخ) لم يأت إلا مبنيًا للمعلوم في الآيات الآتية:

١. ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ آل عمران: (٤٩)

٢. ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ الكهف: (٩٦)

٣. ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا

١- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: للألوسي ، دار التراث ، القاهرة، جـ/١٦ ص٢٦٠.

تَشْكُرُونَ ﴾ السجدة: (٩)

٤. ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ التحريم: (١٢)

فالنفخ من روح الله لخلق آدم أو عيسى – عليهما السلام – واقع بشرى ملموس ، تلمسه البشرية منذ آدم – عليه السلام – إلى يوم القيامة ؛ ليعيش الإنسان بروح الله دون أن يدري لها سرًا غير أن فاعلها – جل شأنه – متعين بالقدرة والوحدانية ، ولذلك جاءت الجملة اللغوية ناصعة التحديد في إبراز الفاعل وفي آيتي: (آل عمران) و(الكهف) نجد مشهد عيسى بن مريم – عليه السلام – وذي القرنين يفتقران إلى وجود الفاعل وإبرازه محددًا ؛ لتجنب اللبس والغموض الذي يؤدي إلى فساد المعنى واختلاط شخوص المشهد.

المبحث الثاني

البناء للمفعول في مشهد القيامة وأهوالها

ورد أحد عشر فعلاً مبنيًا للمفعول في مشهد من مشاهد القيامة وأهوالها في سورة التكوير ، وفعلان مبنيان للمفعول في سورة الانفطار:

١. ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ ﴾ التكوير: (١ – ١٤)

٢. ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ ﴾ الانفطار: (١ – ٥)

فالمشهد هنا زاخر بالحركة العنيفة المنفلته من سياقها ونظامها التي كانت تسير في فلكه منذ أمد بعيد إنه " مشهد انقلاب لكل معهود ، وثورة شاملة لكل موجود ، تشترك في الانقلاب والثورة الأجرام السماوية والأرضية ، والوحوش النافرة ، والدواجن الأليفة ، أو نفوس البشر ، وأوضاع الأمور ، ويبدأ المشهد بحركة جائحة ، وثورة ثائرة ، وكأنما انطلقت من عقالها المردة المدمرة ، فراحت تقلب كل شيء ، تهييج الساكن ، وترويع الآمن ، والموسيقى المصاحبة للمشهد سريعة الحركة ، لاهثة الإيقاع ، تشترك في إيقاعها السريع في تصوير المشهد وتمثيله في الإحساس." (١)

وقد مثل بناء الأفعال للمفعول في الآيات دورًا بارزًا في تصوير الحركة

١- مشاهد القيامة في القرآن: سيد قطب ، ط١٢ ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٣ ، ص ٦٧.

المجهولة في طي الزمان ، فالمشهد بدأ بفك الكون وتدميره من أعلى إلى أسفل ، بالكائنات غير العاقلة: الشمس ، النجوم ، الجبال ، العشار ، الوحوش ، البحار ، ثم الكائنات العاقلة من النفوس والموؤدة ، ثم رجوعها مرة أخرى إلى الصحف التي تنشر والسماء التي تكشط ، وذلك من الكائنات غير العاقلة ، ليعود المشهد إلى مظاهره أو كائناته العليا كما بدأ ، وكأنه مشهد يكور في دائرة انقلاب وانفلات النظام في سرعة فجائية صارمة مثلها البدء بـ(إِذَا) للزمان المفاجئ ، ثم تكرارها مع كل حدث مدمر ، ومن الملاحظ أن كلمة (ٱلْبِحَارُ) بالجمع لم تستخدم في القرآن الكريم إلا للحديث عن يوم القيامة ، يقول تعالى: (وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ) التكوير: (٦) (وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ) الانفطار: (٣) ونلاحظ تسلسل الآيتين في القرآن يتناسب مع المفهوم العلمي: " فأولها: يكون الاشتعال ثم الانفجار وليس العكس ، فجاء تسلسل الآيتين أولاً (سُجِّرَتْ) وثانيًا (فُجِّرَتْ) ، وهذا مطابق للحقائق العلمية الحديثة." [١]

ويلحظ – أيضًا – أن بناء الفعل (سُئِلَتْ) للمفعول وإسناده إلى ضمير (ٱلْمَوْءُۥدَةُ) من قبيل المجاز العقلي وعلاقته الفاعلية ؛ لأن الموؤدة لن تسأل بل وائدها هو الذي يسأل ، وقد أفاد التجوز في الإسناد كمال المبالغة في شدة الوعيد والتهديد لمن يئد البنات.

ونظرة متأنية في هذا المشهد بكائناته وجزيئاته تريك أن التعبير بالفعل المبني للمفعول هو الأسلوب السائد في كل المشهد عدا جزئية واحدة فقط ، هي صورة انصباب النجوم وتنافرها (وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ) فقد جاء التعبير عنها بالفعل المبني للمعلوم ! ولعل السر في ذلك أن النجوم في مراحل انكدارها تمر بمراحل من

١- التناسق البياني لكلمات القرآن الكريم: عبد الدائم الكحيل ، موسوعة الإعجاز في القرآن والسنة www.ooa.net.

الميلاد والشباب والشيخوخة قبل أن تنفجر أو تتكدس على ذاتها فتطمس طمسًا كاملاً: النجوم الابتدائية ثم العادية ثم العماليق الحمر ثم الدم الكوكبية ثم الأقزان البيض ، ثم فوق مستعر من الطراز الأول ثم الثاني ، ثم النجوم النيتروئية النابضة وغير النابضة والثقوب السوداء والنجوم المفردة والمزدوجة والمتعددة ، والنجوم أفران كونية يتم في خلالها سلاسل من التفاعلات النووية التي تعرف باسم عملية الاندماج النووي." [١]

فيتضح مما سبق أن النجوم تنفرد بخاصية هائلة من طبيعة التكوين والتكون والانتشار والانشطار والانفجار ، فلها طبيعتها الكونية التي لا تماثلها طبيعة كونية أخرى فيما عرف من الوجود ، وقد أثبت العلم حديثًا أن النجوم على انتشارها الهائل في السماء تشتمل على درجة حرارة عالية بدرجة مذهلة ، وتنقسم تبعًا لذلك إلى " نجوم حمراء (أقلها حرارة ٣٢٠٠ درجة مطلقة) – نجوم برتقالية – نجوم صفراء – نجوم بيضاء مائلة إلى الزرقة – نجوم زرقاء (أشدها حرارة ٣٠٠ ألف درجة مطلقة) الشمس من النجوم الصفراء متوسطة الحرارة ، إذ تبلغ درجة حرارة سطحها حوالي ستة آلاف درجة مطلقة." [٢]

وهكذا فقد صورت الأفعال المبنية للمفعول هذا المشهد الأخروي بأهواله وحركاته العنيفة والمخيفة وكأننا نعاين يوم القيامة بأعيننا ، ولذا فقد صدق الرسول – ﷺ – حين قال: " من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ (إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ) و (إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ) و (إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ)."[٣]

وفي مشهد آخر يأتي فعلان مبنيان للمفعول وهما (زلزلت – ليروا) ليصورا

١- الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية : د/ أحمد مصطفى متولي ، الطبعة الأولى ، دار ابن الجوزي ، القاهرة ، ٢٠٠٥ ، ص ١٠٦.

٢- الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية : ص ١٠٦.

١- التفسير الكبير: الفخر الرازي ، الطبعة الثانية ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٩٧ ، جـ/١١ ص.٢٣٥

لنا مشهد الزلزلة وهو من مشاهد القيامة وأهوالها وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾﴾ الزلزلة: (١ – ٦) فالزلزلة مشهد خفي غيبي ، وقد جاءت في سياق بث الفزع والرجفة النفسية والتصدع القلبي ، ولم يأت في هذه السورة الكريمة فعل مبني للمفعول إلا (زُلْزِلَتِ – لِّيُرَوْا) فهذا الانقلاب الكوني يمثل الوجه الآخر للمشهد وهو مجسد في رؤية الأعمال التي من أجلها انقلب هذا الكون واختل نظامه ، وإذا كانت (إِذَا) للوقت ، ومع ذلك قد صُدرت بها السورة ، فهي بمثابة الإجابة عن سؤال: " متى الساعة فقال: (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا) كأنه تعالى قال: لا سبيل إلى تعيينه بحسب وقته ، ولكن أعينه بحسب علاماته ، إن الله تعالى أراد أن يخبر المكلف أن الأرض تحدث وتشهد يوم القيامة مع أنها في هذه الساعة جماد. فكأنه قيل: متى يكون ذلك؟ فقال: ((إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ))."[١]

وهكذا فالمشهد كله يخيم عليه الرعب والفزع من أهوال هذا اليوم ، وذلك من خلال التركيب اللغوي في الآيات وإيثار البناء للمفعول فيها ، ومن الملاحظ أن ثمة تركيب لغوي آخر قد شارك في إبراز هذا المشهد وإن كان الفعل فيه مبنيًا للمعلوم ، وهو قوله: (وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا) وذلك من خلال الإسناد المجازي ، فقد أُسند الإخراج إلى الأرض وهي مكان الأثقال ، والأصل: وأخرج الله منها أثقالها ، ويفيد هذا التجوز في الإسناد – والله أعلم – التهويل والتفظيع من شأن ذلك اليوم وشدة قذف الأرض وإلقائها ما بداخلها من أثقال ، وكأنها هي التي تخرج وتقذف تلك

٢- الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية: ص ٢٩٣.

الأثقال ، وفي هذا مبالغة في الحدث مع الإيجاز.

المبحث الثالث

البناء للمفعول في مشهدي العرض والحساب

وردت عدة أفعال مبنية للمفعول: (توفي – تسوي – تظلم – وضع – جيء – قضي – يظلمون) مصورة لنا مشهدي العرض والحساب يوم القيامة ، وهما من مشاهد الغيب البعيدة عن الملموس المادي ، فهي تمثل المشهد بخفاياه ودقائقه ، وتعمل على إبراز فخامته أو رهبته ، وذلك في الآيات الآتية:

١. ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ النحل: (١١١)

٢. ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾ النساء: (٤١ – ٤٢)

٣. ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ الأنبياء: (٤٧)

٤. ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِاْيٓءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ الزمر: (٦٩)

ففي آية (النحل) يستحضر الذهن مشهد الوفاء وذلك بمجيء الفعل (وَتُوَفَّىٰ) مبنيًا للمفعول ، ولم تأت تسمية الفاعل للعلم به ، ولينصبّ الاهتمام على مشهد وفاء الأعمال بهيبته ورهبته ، وقد زاد من رهبة المشهد مجيء صور الآية الكريمة بكلمة (يَوْمَ) نكرة ؛ لتؤدي دورها الحيوي في إبراز الموقف الخفي عن الأبصار ، لتظهر الأشخاص في مشهد جلي ، لا يهتم كل شخص إلا بنفسه ، " فكل نفس لا

يشغلها إلا نفسها ، وقد جاءت منفردة ، وهي في وسط هذا الخضم من المحشورين لا تحس بشيء إلا بذاتها ، فهي تجادل عن نفسها ، تدافع أو تحاول الدفاع ، وتروم الخلاص ، ولا مجال هناك للخلاص." [١]

وفي آيتي النساء (٤١ – ٤٢) تصوير لمشهد آخر حين يُعرض المنكرون لدعوة النبي – ﷺ – على الله يوم القيامة وذلك من خلال بناء الفعل (تُسَوَّى) للمفعول ، ليصور دهس المعرضين المنكرين ، ويظهر مدى ندمهم ، كما لو كانوا دهسوا وسووا في الأرض لكان أهون عليهم من هذا الإعراض فالمشهد يخيم عليه الفزع والرعب ، وتصدير الآية بالاستفهام عن الحال (فَكَيْفَ) فيه إبراز لجو الفزع والرعب ، وإيحاء بنوعية العذاب الهائل الذي لا يوصف ، ولذلك آثر التعبير القرآني الفعل (يَوَدُّ) ليكشف عن مكنون القلب واعتمال الحالة النفسية فيما لو كانت الأرض قد سويت بهم ، وصاروا جزءًا منها ، فيبدو المشهد بحركة المجيء (جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا) وإبراز المعاناة النفسية التي تصير فيها تسوية الأرض بهم إلى حد الأمنية الغالية والمودة الغائبة فيتمنون الدهس والتسوية (تُسَوَّى) بالبناء للمفعول ، لدلالة رغبتهم في دهسهم وتسويتهم بالأرض من أية جهة وبأية طريقة فللقرآن " منطقة الخاص وطريقته المميزة في التعبير عن موضوعاته ، فقد التفت القرآن عن مخاطبة الذهن البشري إلى مخاطبة الحس والوجدان ، وذلك بمنطق التصوير لا التقرير ، ولمنطق التصوير وسيلته التي ميزت أسلوب تناول القرآن لمختلف الموضوعات الإلهية التشريعية والعقائدية والتعبير عنها." [٢]

١- الجامع لأحكام القرآن: القرطبي ، المجلد السادس ، جـ/٢ ص ١٨١.

٢- مشاهد القيامة في القرآن: سيد قطب ، ص ١٩٢.

وفي آيتي الأنبياء (٤٧) والزمر (٦٩) تصوير لمشهد الحساب وعرض الأعمال ووضع الكتب والموازين ، ومجيء النبيين والشهداء والقضاء بينهم بالحق ، ونفي الظلم ، وقد أفاد مجيء الفعل (فَلَا تُظْلَمُ) مبنيًا للمفعول في آية الأنبياء عموم النفي للظلم ، أو عموم الظلم المنفي الشامل لكل نفس من النفوس في شيء من الأشياء ، حيث يظلل الآية جو من العموم والشمول ، للعدل وعدم الظلم ، ولذا فإن استهلال الآية بقوله (وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ) والتعبير بصيغة الجمع (ٱلْمَوَٰزِينَ) والمصدر (ٱلْقِسْطَ) دلالة على تناهي العدل المطلق.

هذا ويرتفع التصوير لمشهد الحساب في آية (الزمر) بالحركة المهيبة ، وليبث في النفس جوًا من الجلال والإشراق ، إشراق الحق والعدل ، قال تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ الزمر: (٦٩) فالأرض كلها تشرق فتظهر مضيئة بنور ربها وخالقها أي: " بعدل ربها ، أو بحكم ربها ، والمعنى: أن الأرض أضاءت وأنارت بما أقامه الله من العدل بين أهلها ، وقيل: إن الله يخلق نورًا يوم القيامة يلبسه وجه الأرض فتشرق به غير نور الشمس والقمر ، ولا مانع من الحمل على المعنى الحقيقي." [١] ولإبراز صورة الأرض رأي عين جاء لفظ الإشراق في وعاء الفعل المبني للمعلوم (وَأَشْرَقَتِ) ، ثم تغايرت الأفعال وجاءت غير مسماة الفاعل (وَوُضِعَ - وَجِاْىٓءَ - وَقُضِىَ - لَا يُظْلَمُونَ) فينصرف الذهن وتشخص الأبصار إلى أجزاء المشهد ، فيتسلط الضوء على وضع الكتاب وهو كتاب الأعمال – وتمثل صورة النبيين والشهداء من الملائكة

١- فتح القدير: الشوكاني ، تحقيق: د/ عبد الرحمن عميرة ، جـ/٤ ص٦٢٥.

الحفظة على أعمال العباد من خير وشر." [1]، أو الذين يشهدون على الأمم من أمة محمد – ﷺ –" [2]، نهاية المطاف وخاتمة مشهد أهل الجزاء والإحسان لهذه الفئة ؛ ليتسلط الضوء على ذلك القضاء أو الوفاء ؛ ولذلك بني الفعل (وَقُضِيَ) لما لم يسم فاعله ؛ لينفي عنهم الظلم على إطلاقه أو في جنس من أجناسه وأشكاله.

ومما سبق يتضح لنا أن بناء الفعل للمفعول قد صور مشهدي العرض والحساب أدق تصوير لأجزاء المشهد الخفية والدقيقة ، وكشف عما فيه من هيبة وجلال ، ورعب وفزع ، كما أفاد – أيضًا – العموم والشمول للحدث وذلك لمجيئة في مقام العموم.

٢- تفسير القرآن العظيم: ابن كثير ، جـ/٣ ص ١٧٧.

١- فتح القدير: الشوكاني ، جـ/٤ ص٦٢٥.

المبحث الرابع

البناء للمفعول في مشهدي الجنة والنار

وردت الأفعال المبنية للمفعول مصورة مشهدي الجنة والنار تصويرًا حيًا يساعد خيال المتلقي على إدراك ما قصرت عنه حواسه المادية كما تساعد نفس المتلقي على تلقي كينونة المشهد بأجزائه الدقيقة ، من النعيم لأهل الجنة ، والعذاب لأهل النار ، وكذا ذكر الجنة مقابل ذكر النار. ومما ورد من الأفعال مصورًا نعيم أهل الجنة الفعل (رزق) الذي جاء معلومًا في كل المواضع القرآنية إلا ثلاثة مواضع ، ورد فيها مبنيًا للمفعول لحكمة يقتضيها السياق ، وذلك في الآيات الآتية:

١. ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ البقرة: (٢٥)

٢. ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ آل عمران: (١٦٩)

٣. ﴿ مَّنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ غافر: (٤٠)

ففي آية (البقرة) جاء الفعل (رُزِقُواْ) بمعنى أطعموا مبنيًا للمفعول ، (قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ) أي: أطعمنا من قبل. [١]

وهذه اللوحة من مشاهد الجنة الغيبية ، فلا تعلم حقيقة الرزق فيها ، ولا حقيقة الإتيان (وَأُتُواْ) فيضم المشهد حدث الفعل من الرزق مع المتمتع به ،

١- يراجع تفسير القرآن العظيم: ابن كثير ، جـ/١ ص ٣٧ .

وكذا الإتيان مع المنتفعين به ، وفي بناء الفعل للمفعول (رُزِقُواْ – رُزِقْنَا – وَأُتُواْ) دلائل أخرى وهي أن الرزق يأتيهم دون جهد أو عناء أو بحث أو شقاء ، وقد شاع في جو الآية جرس موسيقي أحدث إيقاعًا متناغمًا من تكرار الرزق: (رُزِقُواْ – رُزِقْنَا – رِّزْقًا) ، الوارد في سياق النكرة المفيدة للعموم (مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا).

وفي آية (آل عمران) حديث عن حياة خاصة مغايرة للحياة المعهودة ، ولذلك خصصها (عِندَ رَبِّهِمْ) وبني الفعل (يُرْزَقُونَ) للمفعول ؛ إشارة لاختلاف هذه الحياة ، وأنها من نوع خاص يجري الرزق عليهم ويأتي إليهم ، كما يجري الرزق لأهل الدنيا ، فهي إذًا قد وردت في سياق المشهد الغيبي من حياة الدار الآخرة.

وثمة موضع واحد في القرآن الكريم ورد فيه الفعل (رزق) مبنيًا للمفعول وذلك في الحياة الدنيا مصورًا أمرًا غيبيًا وهو قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ يوسف: (٣٧) فقد جاء الفعل (تُرْزَقَانِهِۦٓ) مبنيًا للمفعول صفة لـ(طَعَامٌ) النكرة في سياق النفي فدل على العموم ، أي: طعام ما على العموم والشمول ، وقد زاد ذلك في إبراز إعجاز الموقف الغيبي الذي تطلب بناء الفعل (تُرْزَقَانِهِۦٓ) للمفعول ، وذلك أن يوسف – عليه السلام – " وصف نفسه بما هو فوق العلماء ، وهو الإخبار بالغيب ، وأنه ينبئهما – وهما الفتيان اللذان دخلا معه السجن – بما يحمل إليهما من الطعام في السجن قبل أن يأتيهما ويصفه لهما ، ويقول: كيت وكيت ، فيجدانه كما أخبرهما." [١]

وأما مجيء الفعل (رزق) مبنيًا للمعلوم فيكون لوقوعه في سياق تقرير

١– الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز: الدامغاني ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٣، ص٢٦.

الحقائق الدامغة والشاخصة للعيان ، والتي لا جدال فيها ولا مراء ، ومن ذلك قال تعالى: ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ النمل: (٦٤) ، وقوله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ السجدة:(١٦) حيث جاءت الآيتان في سياق إثبات كون الرزق من عند الله – عز وجل – وأنه البرهان القاطع والدليل الساطع على إثبات الوحدانية لله – تعالى – واستحقاقه وحده بالدعاء خوفًا وطمعًا ، فمن يرزق يستحق أن يُعبد ويُرجى.

وفي سياق الحديث عن نعيم الجنة جاء الفعل (يطاف) مبنيًا للمفعول مرة ، ومبنيًا للمعلوم مرة أخرى في سورة واحدة ، يقول تعالى: ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِءَانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۟ ﴿١٥﴾ ﴾ الإنسان:(١٥) ، ويقول جل شأنه: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ الإنسان:(١٩) فقد ورد الفعل مبنيًا للمفعول في الآية الأولى ، في حين جاء مبنيًا للمعلوم في الآية الثانية. والمقارنة بين الآيتين تبين لنا أن هذه المغايرة من المجهول إلى المعلوم لحكمة اقتضاها السياق ، وتدخلت الصيغة اللغوية لتصوير المشهد ، فالطواف في كلا المشهدين خاص بأهل النعيم من الجنة ولكن " ذُكر الأول بلفظ مجهول ؛ لأن المقصود ما يطاف به لا الطائفون ولهذا قال: (بِءَانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ)ثم ذكر الطائفين فقال: (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ) ." [1]

كما ورد الفعل (يُطَافُ) مبنيًا للمفعول في موضع آخر من سورة الصافات وهو قوله تعالى: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ الصافات: (٤٥) في حين ورد الفعل (يَطُوفُ) مبنيًا للمعلوم في سورة الواقعة ، قال تعالى: ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ

٢- التصوير الفني في القرآن: سيد قطب، ط٤ ،دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٣ ، ص ٣٦.

﴿ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ الواقعة: (١٧) فلم يذكر الطائفين في آية (الصافات) لأنها وردت في سياق جزاء المؤمنين المخلصين ، وذكرهم في الواقعة زيادة في التنعيم ، حيث وردت في سياق جزاء السابقين المقربين وهم أعلى من المؤمنين المخلصين ؛ "ولذا فقد زاد الأكواب والأباريق على الكأس في آية الواقعة (بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ) ولا شك أن تنوع الأواني إنما هو لتنوع الأشربة وتعددها. فتنعم السابقين أعظم وأعلى." (١)

وثمة موقف آخر زاخر بالاحتفاء والتكريم والترحيب بأصحاب الجنة جاء الفعل (وَنُودُوٓاْ) مبنيًا للمفعول لتصوير مشهد الاحتفاء والترحيب بالمؤمنين عند دخولهم الجنة ، قال تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ الأعراف: (٤٣) فقد ورد الفعل (وَنُودُوٓاْ) مبنيًا للمفعول وغاب الفاعل ؛ وذلك للعلم به ولعمومه ، إما من الله – عز وجل – وإما من عموم الملائكة ، وإما من ملائكة الجنة ، ولا جرم فالموقف حافل بالتكريم والنعيم ، ولذا فإن مجيء الفعل مبنيًا للمفعول لفت الانتباه إلى حقيقة الحدث ومدى تعلقه بالمفعول به الأصلي (المؤمنون) محققًا الغرض الأساس من إبراز عناصر المشهد لتأدية دورها في قوة ووضوح ، دون مزاحمة لفظية أو حضور لغوي لا يتعلق الغرض به.

في حين جاء الفعل (وَنَادَىٰٓ) مبنيًا للمعلوم في الآية التي بعدها في سورة الأعراف ، قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم

١- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: ص ٨٢.

مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ الأعراف: (٤٤) ، وقول تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ الأعراف: (٥٠) فالموقف يخيم عليهم جو من التقريع والتأنيب والذم والحرمان ، فالآية الأولى فيها إظهار الفاعل لتعلق الغرض به ، ومن ثم فالموقفان مختلفان ، فذاك موقف احتفاء وترحيب ، ومقامه المدح والامتنان ، وهذا موقف تقريع وتأنيب ، ومقامه الذم والحرمان.

وثمة نمط عال في التنعيم والتكريم ودقة بيانية في التعبير القرآني الفريد من خلال بناء الفعل (ينزفون) للمفعول مرة وبنائه للمعلوم مرة أخرى ، قال تعالى: ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ الصافات: (٤٧) ، وقال تعالى: ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ الواقعة: (١٩). وعند الرجوع في بطون المعاجم العربية تبين لنا أن (يُنزِفُونَ) بكسر الزاي له أكثر من معنى. فإن معنى (أنزف ، ينزف): نفد شرابه ومعناه – أيضًا – : ذهب عقله وسكر. ومعنى (ينزف) بالبناء للمجهول: ذهب عقله من السكر ، وهو من (نُزِف). جاء في لسان العرب: " أنزف القوم: نفد شرابهم. الجوهري: أنزف القوم ، إذا انقطع شرابهم ... والمنزوف: السكران المنزوف العقل ، وقد نُزف. في التنزيل العزيز: (لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ) أي: لا يسكرون. قال الفراء: وله معنيان، يقال: (أنزف الرجل) فني خمره (وأنزف) إذا ذهب عقله من السكر ، فهذان وجهان في قراءة من قرأ: (يُنزِفون) ومن قرأ: (يُنزَفون) فمعناه: لا تذهب عقولهم أي: لا يسكرون." [١]

فمعنى الآية في الواقعة: أن هذا الشراب لا ينفد ، ولا ينقطع وأنهم لا يسكرون عنه. ومعناها في الصافات أن هذا الشراب لا يُذهب عقولهم فلا يسكرون

١ – لسان العرب: ابن منظور – مادة (نزف) – ويراجع: معاني القرآن للفراء: جـ/٢ ص٣٨٥.

عنه.

وبالتأمل في سياق الآيتين يتضح لنا أن كل مفردة إنما وُضعت في مكانها المناسب ؛ ذلك أن سياق الآيات في سورة الواقعة إنما هو في السابقين المقربين وهم أعلى الخلق من المكلفين. قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ... لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ الواقعة: (١٠– ١٩) وسياق الآيات في سورة الصافات إنما هو في المؤمنين المخلصين. قال تعالى: ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ... لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ الصافات: (٤٠ – ٤٧).

وبالمقارنة بين الآيتين يتضح لنا أن التعبير القرآني قد آثر بناء الفعل (يُنزَفُونَ) للمفعول في سورة الصافات فذكر: أنها لا تفسدهم أو لا تهلكهم أو لا تغتال عقولهم.[1] ولا تسكرهم. وذكر في الواقعة: أنهم لا يصيبهم منها صداع ولا يسكرون ، وهذا الشراب لا ينفد. وهذا أتم وأعلى. وذلك من خلال بناء الفعل للمعلوم (لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ).

هذا وقد تآزرت التعبيرات القرآنية في الآيتين على إيضاح ذلك وإبرازه ، حيث قال في الصافات (لَا فِيهَا غَوْلٌ) ومعنى الغول: الفساد أو الإهلاك أو اغتيال العقول وهو السكر. فإن كان بمعنى الفساد أو الإهلاك فإن نفيه لا ينفي ما دونه من الآفات. فإنك إذا قلت: (هذا الشراب لا يميت) فإنه لا ينفي في أن يكون فيه بعض أنواع العلل دون الموت. وأما في سورة الواقعة فإنه نفي الأدنى وهو الصداع ، فانتفاء الأكبر إنما هو من طريق الأولى ، فإذا كانوا لا يصيبهم صداع فمن الأولى أن لا يصيبهم منها الغول.

وعلى هذا فإن انتفاء الغول لا ينفي الصداع ، وانتفاء الصداع ينفي الغول.

٢– انظر: روح المعاني للألوسي: جـ/٢٣ ص٨٨ ، والكشاف: جـ/٢ ص ٦٠١.

فيكون ما في الواقعة أعلى. وإذا كان الغول بمعنى اغتيال العقول ، وهو السكر فإنه نُفي بقوله: (لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ) شيئًا واحدًا عنها ، فإن معنى: (وَلَا يُنزِفُونَ) كمعنى (لَا فِيهَا غَوْلٌ) ولكن إحداهما صفة الخمر والأخرى صفة شاربها. وأما في الواقعة فإنه نفى عنها شيئين: الصداع والسّكر. وهذا أتمّ. ثم إنه في الصافات نفى عنهم السكر فقال: (لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ) بفتح الزاي أي: لا يسكرون عنها. وأما في الواقعة فقد نفي السكر والنفاد فقال: (وَلَا يُنزِفُونَ) بكسر الزاي أي: أن هذا الشراب لا يسكر ولا ينفد هذا أتم وأكمل. ومما زاده حسنًا قوله في الصافات: (يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ) بالبناء للمفعول فناسب (يُنزَفُونَ) بالبناء للمفعول. وقال في الواقعة: (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ) بالبناء للفاعل ، فناسب (يُنزِفُونَ) بالبناء للفاعل.

وعليه فإن (يُنزِفُونَ) ناسب ما في الواقعة و(يُنزَفُونَ) بالبناء للمفعول ناسب ما في الصافات.

وفي سياق الحديث عن عذاب أهل النار ورد البناء للمفعول في أربعة أفعال: (قُطِّعَتْ - يُصَبُّ-يُصْهَرُ - أُعِيدُواْ) مصورة مشهدًا من مشاهد عذاب أهل النار – أعاذنا الله منها – يقول تعالى: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾ الحج: (١٩ – ٢٢).

فالآية الكريمة وردت في حق الكافرين في الآخرة وبيان حالهم في نار جهنم ، وقد بدأت الآية الكريمة بالإجمال (هَٰذَانِ خَصْمَانِ) هما: الكافرون والمؤمنون وقال: (ٱخْتَصَمُواْ) على معنى الجمع ثم التفصيل الذي بدأ بذكر الذين كفروا ، وجاءت

الأفعال في حقهم مبنية للمفعول (قُطِّعَتْ - يُصَبُّ-يُصْهَرُ - أُعِيدُواْ) للدلالة على الذم والتقبيح وهم في مقام التجهيل والإهمال ، فينصرف الذهن لمتابعة الحدث ومعموله ، فيتراءى أمام العين مشهد التفظيع بصوته المدوي ، ولم يقل (قطعت) بالتخفيف ؛ وذلك للمبالغة في كثرته وتكراره لدوام العذاب وخلودهم فيه ، فهذا هو مشهد الثياب المقطعة ، ثم يبرز من بعده مشهد صب الحميم وهو الماء المغلي فوق الرؤوس.

ويلحظ تقدم ذكر الرؤوس علىالحميم في قوله: (يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ) ؛ لأن الغرض متعلق بأثر الصب على الرؤوس ، ثم يأتي مشهد الصهر ، ومشهد الإعادة في عنف بعد محاولتهم الهروب وظنهم استطاعة الخروج ، وهكذا فالمشهد بأجزائه " مشهد عنيف صاخب ، حافل بالحركة المتكررة ، مطول بالتخييل الذي يبعثه النسق ، فلا يكاد ينتهي الخيال من تتبعه في تجدده." [1]

وفي موقف آخر يصور الفعل المبني للمفعول حال أهل النار عندما يقررهم ربهم بإعراضهم عن آياته في الدنيا. يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ المؤمنون: (١٠٥) فالموقف موقف تقريع وتأنيب وتقرير وتوبيخ وهو ما أفصح عنه استهلال الآية بالاستفهام التقريري (أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ) ، وفيه ترهيب من مصيرهم وتحذير من الوقوع في مثل ما وقعوا فيه من جراء إعراضهم وإنكار تلاوة آيات الله عليهم ؛ ولذلك جاء التعبير بصيغة المبني للمفعول (تُتْلَىٰ) لتصور طبيعة الموقف وما كانوا عليه في الدنيا.

وقد جاءت تلك الصيغة (تُتْلَىٰ) في سياق الآية المصدرة بالاستفهام المفيد للتقرير والإنذار، وقوله: (ءَايَٰتِى) كناية عن القرآن ، والسر البلاغي في إيثارها على

١- مشاهد القيامة في القرآن: سيد قطب ، ص ٢٥٧.

الاسم الصريح "ما فيها من خصوصية الدلالة على المعجزات الباهرة ، وأوثر حرف الجر (على) على حرف (اللام) فقال: (عَلَيْكُمْ) دون (إليكم) للرمز بعلو شأن الآية وما فيها من الإيحاء بمعنى الإلزام ، والعطف بالفاء في (فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ) للتشنيع عليهم في سرعة التكذيب." (١)

وقد يقتضي المقام ذكر الفاعل اسمًا ظاهرًا أو ضميرًا يعود على اسم ظاهر لتتمثل الصورة حاضرة في أتم وضوح فتؤدي الغرض الذي من أجله جاء ، ومن ذلك فقد ورد الفعل (وَتَقَطَّعَتْ) مبنيًا للمعلوم وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾ البقرة: (١٦٦) ، وقوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾ محمد: (١٥) ، وقد ظهر ذلك جليًا كما في آيتي سورة الحج السابقتين في الحديث عن مشاهد العذاب وما تخلفه من تهويل وترهيب تقشعر منه الجلود والأبدان.

وفي سياق ذكر الجنة مقابل ذكر النار ورد الفعل (أعد) مبنيًا للمفعول في الآيات الآتية:

١. قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ البقرة: (٢٤)

٢. وقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ آل عمران: (١٣١)

٣. وقوله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ

١- التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم: جـ/٣ ص ٢٨ ، ٢٩.

وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ آل عمران: (١٣٣)

٤. وقوله تعالى: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾ الحديد: (٢١)

فلفظ الإعداد هنا بمعناه اللغوي الموحي بالمتانة والاتقان ، وبما لحق اللفظ من تضعيف وبناء للمفعول يعمل على إحضار المشهد " ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة ، أو الحركة المتجددة ، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي ، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية." [١]

وقد جاء الفعل نفسه مبنيًا للمعلوم عند الحديث عن اسم أو صفة أو معنى من معاني الجنة والنار أو كالأجر والعذاب والسعير وجهنم ، كقوله تعالى: ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾ التوبة: (٨٩) ، فهي جنان ودرجات داخل الجنة التي أعلاها الفردوس الأعلى.

وقوله تعالى: ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ الأحزاب: (٣٥) ، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ ﴾ الأحزاب: (٦٤) فالسعير اسم من أسماء النار ومن دركاتها. وقوله تعالى: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ الفتح: (٦) ، وجهنم – أجارنا الله منها – من دركات النار ، ومنها الدرك الأسفل ، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ

١- الكشاف: للزمخشري : جـ/٢ ص ٤٧٠.

وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ النساء: (١٤٥).

فيتضح مما سبق أن لفظ (أعد) بصيغة البناء للمفعول لم ترد إلا في معرض الحديث عن الجنة والنار باسمهما العام الذي يمثل الإطار العام للجنة والنار .

الخاتمة

يمكن – بعد حمد الله تعالى وشكره – أن نخرج من هذا البحث بالنتائج الآتية:

(١) يأتي البناء للمفعول مصورًا المشاهد الخفية في الدنيا أو الغيبية في الآخرة.

(٢) البناء للمفعول يسلط الضوء ويلفت الانتباه إلى حقيقة الحدث وطبيعته ومدى علاقته وتعلقه بالمفعول الأصلي ، فيحقق الغرض الأصلي من إبراز عناصر المشهد ويتيح لها المجال الأكبر لتأدية دورها في قوة ووضوح ، دون مزاحمة لفظية أو حضور لغوي لا يتعلق الغرض به.

(٣) يشارك البناء للمفعول في تصوير المشاهد الغيبية الأخروية البناء للمعلوم وذلك إذا وُضع ضمن هذا التصوير ، بتركيبه الحقيقي ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ﴿٤﴾ ﴾ التكوير: (٢ – ٤) وتركيبه المجازي كما في قوله: ﴿ إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ﴿٢﴾ ﴾ الزلزلة: (١ – ٢).

(٤) يؤثر القرآن الكريم التعبير بالبناء للمفعول دون غيره في سياقات معينة ، كما ورد لفظ (أُعد) بصيغة البناء للمفعول لم ترد إلا في معرض الحديث عن الجنة والنار باسمهما العام الذي يمثل الإطار العام للجنة والنار. وكما في لفظ (سكرت – عميت) حيث وردا هكذا بالبناء للمفعول وحيدين في القرآن الكريم.

(٥) يتطلب البناء للمفعول سياقًا ذا دلالة خاصة تنبئ عن مكنون المشهد وخفاياه المطوية، فقد يأتي ليصور مجهول النفس وما طُوي أو أضمر فيها ، كتصوير خبايا النفس وخفي النيات في دروب الباطن.

(٦) يفيد البناء للمفعول العموم إذا ورد في سياق الاستفهام أو النفي أو الشرط ، وقد تبين ذلك من خلال وقوفي على الأفعال (دعي– نودي – ظلم – عفي)

الواردة في مثل هذه السياقات.

(٧) يمثل البناء للمفعول عنصر المفاجأة ويصور الحركة وعنفها ، وقد تبين ذلك من خلال وقوفي على الأفعال (نودي – تقفوا – أخذوا – قتلوا).

(٨) أن مجيء البناء للمفعول للاتساق والتوافق مع سياق الآيات ليس كافيًا بل لا بد من الاتساق مع المقام والسياق في اللفظ والمعنى ، وقد اتضح ذلك من خلال الوقوف على الفعل (طبع) المبني للمفعول وورود مرتين في القرآن الكريم فقط.

(٩) يؤثر القرآن الكريم التعبير بصيغة البناء للمعلوم وتسمية الفاعل في مقام إثبات الحقائق العقدية والعلمية من إثبات القدرة لله – تعالى – وإفراده بالوحدانية خالقًا وبارئًا ، وإنزال الماء وإحياء الأرض ، وإنزال الوحي من السماء إلى الأرض. وقد تبين ذلك من خلال الوقوف على الأفعال (أنزل – خلق – أرسل).

(١٠) أن ما جاء في كتاب الله – تعالى – بخصوص إنزال الماء من السماء ورد بالبناء للمعلوم سواء في سياق الأسلوب الخبري أو الإنشائي ؛ لتتقرر حقيقة قدرة الله ظاهرة معلومة لكل ذي قلب آخذة بعنان لبه واضعة يدة على وجود الله وقدرته.

(١١) أن إسناد الطبع إلى الله أشد تمكنًا في القلب من بنائه للمفعول ، فما أسند إليه صراحة يكون أثبت وأقوى مما لم يسند إليه. وعلى هذا فإن التعبير القرآني يسند الطبع إلى الله في مواطن المبالغة والتأكيد ويبنيه للمفعول فيما هو أقل من ذلك.

(١٢) بناء الفعل (ينزفون) للمعلوم جاء أبلغ وأتم وأعلى في التنعيم من مجيئه مبنيًا للمفعول؛ وذلك لإفادته نفي شيئين: السكر والصداع ، في حين أفاد بناءه للمفعول نفي شيء واحد وهو السكر.

وبعد ،،،

فهذا ما وفقني الله إليه في هذه الدراسة ، فإذا وُجد فيها ما يفيد فهو من الوهاب – سبحانه وتعالى – ، وإذا وُجد تقصير فحسبي أنه غير متعمد ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ البقرة: (٢٨٦).

والله أعلى وأعلم

الباحث

د/ سرحان حسن سرحان محمد

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: المصادر والمراجع الأخرى:

١. الاتقان في علوم القرآن: السيوطي – تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار التراث، القاهرة ، ١٩٩٧.

٢. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي ، الطبعة الرابعة ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ، ١٩٤٥م.

٣. البرهان في علوم القرآن: للزركشي ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الثانية ، دار التراث ، القاهرة.

٤. بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: د/ فاضل صالح السامرائي ، الطبعة الثانية ، دار عمار ، ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١م.

٥. التصوير الجمالي في القرآن الكريم: د/ عيد يونس ، الطبعة الأولى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ٢٠٠٦.

٦. التصوير الفني في القرآن: سيد قطب ، ط٤ ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٣م .

٧. التناسق البياني لكلمات القرآن الكريم: عبد الدائم الكحيل ، موسوعة الإعجاز في القرآن والسنة www.ooa.net.

٨. التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم : د/ عبد العظيم المطعني ، الطبعة الأولى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٩٩م.

٩. تفسير القرآن العظيم: ابن كثير ، اختصار وتحقيق: أحمد شاكر وأنور الباز ، الطبعة الأولى ، دار الوفاء ، المنصورة ، ٢٠٠٣م.

١٠. تفسير السدي الكبير – تحقيق: د/ محمد عطار ، الطبعة الأولى ، دار الوفاء المنصورة ، ١٩٩٣م.

١١. جامع البيان في تفسير القرآن: الطبري ، الطبعة الثانية ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٧٢م.

١٢. دراسات جديدة في إعجاز القرآن: د/ عبد العظيم المطعني، الطبعة الأولى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٩٦.
١٣. دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق: عبد المنعم خفاجي ، مكتبة القاهرة، مصر ، ١٩٨٠.
١٤. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: للألوسي ، دار التراث ، القاهرة.
١٥. فتح القدير: الشوكاني – تحقيق دكتور: عبد الرحمن عميرة ، الطبعة الثانية ، دار الوفاء ، المنصورة ، ١٩٩٧م.
١٦. الكشاف: للزمخشري ، تحقيق: مصطفى حسين ، الطبعة الثالثة ، دار الريان للتراث ، القاهرة ، ١٩٨٧.
١٧. مشاهد القيامة في القرآن: سيد قطب ، ط١٢ ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٣.
١٨. المفردات في غريب القرآن: للراغب الأصفهاني ، تحقيق: وائل عبد الرحمن المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، ٢٠٠٣.
١٩. ملاك التأويل: لأبي جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي ، تحقيق: د/ محمد كامل أحمد، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٤٠٥ – ١٩٨٥.
٢٠. الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية : د/ أحمد مصطفى متولي ، الطبعة الأولى ، دار ابن الجوزي ، القاهرة ، ٢٠٠٥.
٢١. النحو الوافي: د/ عباس حسن ، ط الثانية عشر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٥.
٢٢. الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز: الدامغاني ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٣.